الفصل الأول

فاعلية المكان فى الغرض الشعرى

obeikandl.com

obeikandl.com

توطئة

المكـان مـن العناصر المهمة التى تؤثر فى حياة البشر، وجاء الاهتمام بالمكان مع بدء النهـوض الاجتماعى والفكرى للإنسان، ولا أظن هذا الاهتمام جاء عفو الخاطر دون دلالات انتمائية ونفسية ووجدانية وجمالية وشعورا بالانتماء إلى الأرض[١].

إن المكان يثير إحساساً بالماضى والحاضر، فأكثر الشعراء القول فيه سواء أكان بحقيقته أم برموزه ودلالته، فهو وسيلة وليس غاية كما أن حقيقته فى الشعر نفسية وليست موضوعية فهو عنصر فنى مكتنز بالقيم والأفكار[٢]. وذكر الشعراء له-أى للمكان- جاء نتيجة ارتباط المكان بهموم الشعراء وإثارة أشواقهم فضلا عن ذلك الحنين إلى تلك الأماكن.

يعد الإنسان والمكان كالروح والجسد ((حيث المكان مؤهل للكشف عن لا وعى الشخصية وحيويتها النفسية والاجتماعية، لأنه ببساطة لا معنى ولا دلالة للمكان بعيدا عن الإنسان الذى يقوم بتنظيمة وإجراء عمليات التقطيع والمفصلة فى بنيته وفقاً لآليات ثقافية محددة))[٣].

والمكان وسيلة تعبير عن معاناة الشعراء لذا أصبح مقترنا بالغرض الشعرى بل وأداة فاعلة فيه، ودخل المكان بدلالاته الانتمائية والنفسية وبكثافة عالية فى الغرض

---

(١) ينظر: الرواية والمكان، ١/ ١٠.

(٢) ينظر: التفسير النفسى للأدب، عز الدين إسماعيل، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤، ٥٠.

(٣) شعرية المكان فى الرواية الجديدة، خالد حسين حسين، كتاب الرياض، العدد ٨٣، أكتوبر ٢٠٠٠م، ١١٨.

الشعرى فهو ((وسيلة للإفصاح عن مشاعر الحزن والحنين والغربة والخوف والقلق))[١].

وشعراء الأندلس من الشعراء الذين استخدموا المكان أداة للتعبير عن معاناتهم فجاء مقترنا بالغزل، فلا تذكر الديار إلا وتذكر الحبيبة فهى علاقة ارتباط بين الشاعر والمرأة علاقة تذكر للديار والأحبة، والأمر نفسه يقال بالنسبة للمديح إذ عكس الشاعر المكان بدلالاته ورموزه على ممدوحه وأخذ الشعراء المكان بجماليته، ليكون ساحة تستوعب صفات الممدوح ((والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفاوز وما أنضى من الركائب وما تجشم من هول الليل وسهره وطول النهار وهجيره..ثم يخرج إلى مدح المقصود))[٢].

ويدخل المكان بكثافة عالية فى الوصف ونقصد به ((وصف الجمال الطبيعى للمكان)) [٣] هذا الوصف لهذه الأمكنة يمكن القول بأنه يخلق إمكانية نفسية وفكرية للعلاقة بين الإنسان والمكان وثمة علاقة أخرى بين المكان والشعر، ففهم المكان من فهم الشعراء، أما الإمساك بالمكان فهو الغرض الأساسى الذى يسعى إليه الشخص[٤].

فقد بقى المكان يؤدى دورًا فاعلا فى الغرض الشعرى فضلا عن كونه وسيلة فنية معبرة عن الكثير من المشاعر الداخلية وسواء أكان الغرض مديحا أم رثاء أم هجاء أم فخراً، فإن المكان يظل فيه شاهدا حسيا على متغيرات تلك الحياة الإنسانية وما يحتدم من صراعات الواقع[٥]، لذلك ارتأيت فى هذا الفصل الحديث عن المكان وأثره فى الغرض الشعرى بدءاً بالغزل ونهاية بأغراض أخرى.

---

(١) دلالة المكان فى مدن الملح، لعبد الرحمن منيف، محمد شوابكة، مجلة أبحاث اليرموك، الأردن، مج٩، ع٢، ١٩٩١م،١٩.

(٢) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى (ت: ٤٥٦ هـ) حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل ، بيروت، ط٤، ١٩٧٢، ١/ ٢٢٦.

(٣) جماليات المكان فى شعر عرار، د. تركى المفيض، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، عمان، مج٤ ،ع٢، ١٩٨٩م، ٢٠٥

(٤) ينظر: المكان فى الشعر العربى قبل الإسلام، ١٩.

(٥)ينظر: المصدر نفسه، ٣١٤.

المبحث الأول

المكان والغزل

الغزل من الأغراض الشعرية المحببة إلى النفس، فهو يصور أشواق المحبين ولواعجهم، ولم يحفل العرب بشيء من احتفالهم بالغزل، وهو من أصدق أنواع الشعر عاطفة، وصور فيه الشعراء أشواقهم وإحساساتهم نحو المرأة تصويرا للنفوس وكشفا لدواخلها[1].

والشاعر العربى رأى ((أن المرأة هى جماع مظاهر الجمال وصوره فهو لا يشهد غيرها فى حياته الرئيسية وهى تكاد تكون لذلك محور اهتماماته النفسية ووثباته العاطفية))[2]. وكان الغزل اللغة الناطقة لاستمالة تلك المرأة وجذب عواطفها.

ويمكن القول إن الأندلس قد ازدهر فيها شعر الغزل وكان مرده إلى البيئة الأندلسية ((حيث امتزج العرب بسكان الجزيرة الأندلسية وعاشوا حياة حضرية ناعمة أغرتهم بشتى وسائل اللهو والمجون وحررتهم من كثير من الأغلال والتقاليد الموروثة، ثم إن الأندلس كان لها حظ كبير من الجمال البشرى كَحَظِّ بيئتها من الجمال الطبيعى، مما استرعى أنظار العرب ونبه عواطفهم))[3].

فقد جسد المكان فاعليته فى الغزل بكونه المدخل الأساس الذى يلج من خلاله الشاعر، كى يظهر المكونات الخفية التى تختلج فى نفسه فأصبح جزءاً من الغزل

---

(١) ينظر: الغزل فى العصر الجاهلى، محمد أحمد الخوفى، دار نهضة مصر، القاهرة، ط١، (د.ت)، المقدمة، ٦.

(٢) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكرى فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٧٨..

(٣) اتجاهات الشعر الأندلسى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى، د.نافع محمود. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٠م، ١٩٤-١٩٥.

وسبباً من أسباب وجوده، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة (ت: ٢٧٦ هـ) بقوله:

((وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها..ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد، وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق نحو القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأن النسيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وألف النساء))[١].

وذهب إلى ذات المعنى أبو هلال العسكرى (ت: ٣٩٥ هـ) بقوله: ((كانت العرب فى أكثر شعرها تبتدئ بذكر الديار والبكاء عليها والوجد بفراق ساكنيها))[٢] فذكر هذه الأماكن لم يأت اعتباطا بل كان نابعا من صميم الشعراء فهى أماكن الأهل والأحبة ((هذه العلاقة بين الإنسان والمكان تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل، إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفر فى الإنسان خصائصه وملامحه فإنه ينحفر- المكان- بالإنسان وفعالياته المستمرة))[٣].

وإذا ما نظرنا إلى المطالع الشعرية فإننا سوف نجد ذكر الديار والأطلال الدارسة صفة غالبة على هذه المطالع والسبب فى ذلك هو لجوء الشاعر إلى هذه الأمكنة ((ليتخذ منها وسيلة تذكره بحبيبته، أو وسيلة تساعده على التعبير عن ألم الفراق والصدود خاصة عندما يتعرض لوصف الديار القفراء))[٤].

---

(١) الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م، ١/ ٧٤ -٧٥.

(٢)الصناعتين- الكتابة والشعر-، لأبى الهلال العسكرى، تح: على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٩٥٢م: ٤٥٢..

(٣) شعرية المكان فى الرواية الجديدة، ٦٣-٦٤.

(٤) المطلع التقليدى فى القصيدة العربية، دراسة ونقد وتحليل، تأليف: عدنان عبد النبى البلداوى، تقديم: د. إبراهيم السامرائى، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٤م، ١٤.

وإذا ما عاد الأمر خافيا فإن هذه الأماكن تجمع ((بين عنصرين أحدهما يذكر بالفناء..والآخر يذكر بالحب))[1].

وبما أن ظاهرة المكان معروفة فى الشعر العربى، فإن للشعر الأندلسى نصيبا من هذه الظاهرة، وربما كان له النصيب الأكبر من هذه الظاهرة والسبب.فى ذلك يعود إلى البيئة الأندلسية وما ضمت فى حناياها من جمال طبيعى، فلهم فى الغزل شعر جميل ومؤثر ((فقد كان ينساب على شفاه الشعراء الأندلسيين انسيابا لأسباب كثيرة منها اختلاط الرجال بالنساء وإطلاق الحرية الفردية مضافا إلى ذلك جمال الطبيعة الأندلسية))[2].

وإذا كان الدكتور باقر سماكة وضع جمال الطبيعة الأندلسية فى موضع الإضافة فإننى أضعها فى موضع الصدارة فى إثارة الشعراء وتحريك مشاعرهم فى قول الغزل ((فقد يتغزل الشعراء الأندلسيون متشوقين إلى أحبتهم فتعن لهم أيام اللقاء بالأندلس وينقطعون عن الغزل إلى وصف مواضع اللقاء بأحبائهم الهاجرين وقد يصف عاشقهم حبيبة مستعيرا له صورة جنة مختلفة الأزهار فتكون الطبيعة حينذاك متكأ فى غرضهم الشعري))[3].

وكان للشاعر الأندلسى تجربته التى عانى فيها من بعد ديار المحبوبة وبكاءه نأى الأحبة ووقوفه على أطلالهم فهذا الغزال (ت: ٢٥٠هـ) يصب لنا تجربته المعاشة فى تجربته الأدبية فيخرج لنا أبياتا نلمس فيها روح الفراق ولوعة الاشتياق وهى تعرج على المكان مضمونا ودلالة يقول:

رِيعَ قلبى لّما ذكرتُ الديارا ... وتنوّرْتُ بالنُّخيلاتِ نارا

وازدهتنى ذات السّنا ببروقٍ ... من لظاها فما أُطيق اصطبارا

---

(١) روح العصر، دراسات نقدية فى الشعر والمسرح والقصة، عز الدين إسماعيل، بيروت، ١٩٧٨م، ٢٠.

(٢) التجديد فى الأدب الأندلسى، د.باقر سماكة، مطبعة الإيمان، بغداد، ١٩٧١م، ٤١..

(٣) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الأندلسى، د.هدى شوكت بهنام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٠م، ١٣٢..

والقـــريحُ الفـــؤاد يـــزدادُ للـــنا رِ ومـيض الـسَّعير مـنها استِعاراً[1]

فقرن ريع القلب بذكر الديار واستخدم معانى الشوق والوجد وعدم الصبر على ذلك وجميع هذه المعانى تنبئ بمرارة الحزن ولوعة الفراق وشدة المعاناة.

ومن هذه المعانى ما ذهب إليه ابن عبد ربه (ت: ٣٢٨هـ) ((قدوة شعراء الأندلس وأدبائها))[2] فى قوله:

والـــــدارُ بعـــــدهمُ مقـــــسّمةٌ بـــين الـــرياحِ وهـــاتنِ الـــودقِ
درجَ الـــزمانُ علـــى معارفهـــا كمـــدارجِ الأقـــلام فـــى الـــرّقِ
لمْ يـــبق مـــنها غـــيرُ أرمـــدةٍ لُـــبِّدنَ بـــين خـــوالدٍ وَرْقِ
وســـطورِ إنـــاءٍ بعقـــوتِها محـــنوةٍ كأهلـــةِ المحـــقِ[3]

إنه وصف حزين لدار الحبيبة، فهو بحق القول ((وطن مكانى مفقود))[4].

لقد أصبح المكان ((مستودعا لهذه الذكريات يظل يوحى للإنسان بالعقل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية التى تعيد توازنه النفسى فى حالة فقدان ذكرياته مع المرأة))[5] ويبدو ((أن شعر هذه الفترة لم يستقل استقلالا تاما عن شعر المشارقة ولم يتأثر بعد بطبيعة الأندلس الفاتنة))[6] وهذا ما نلمسه فى مقطوعة

---

(١) ديوان يحيى بن حكم الغزال، حققه وشرحه وقدم له: د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ٧٢.

(٢)رايات المبرزين وغايات المميزين، لابن سعيد الأندلسى، تح: د. النعمان عبد المتعال القاضى، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٣م، ٧٧.

(٣)ديوان ابن عبد ربه، حققه وجمعه وشرحه:د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧٩م، ١٢٠-١٢١.

(٤) وحدة الموضوع فى القصيدة الجاهلية، نورى حمودى القيسى، دار الكتب، الموصل، ١٩٧٤م، ١٠.

(٥)جماليات المكان فى شعر عرار، ١٩٧.

(٦) الأدب العربى فى الأندلس تطوره وموضوعاته وأشهر أعلامه، د. على محمد سلامة، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٩م، ٩٧.

لإسماعيل بن عبد الرحمن القرشي[1] فقد ابتدأها بكلمة (خليلي) وهى كلمة عادة ما افتتح بها المقدمات التقليدية عند المشارقة وذكر ديارهم حين قال:

خليلـى هـل ليلـى ونجـد كعهـدنا ... فـيا حـبذا ليلـى ويـا حـبذا نجـدُ
عـسى الدهـر أن يقـضى لـنا ... فـيا ربّ قـربٌ يجـدده بعـدُ[2]

ومن شعراء هذه الحقبة ابن هانئ الأندلسى (ت: ٣٦٢هـ) الذى قيل عنه:

((ليس فى المغاربة من هو فى طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة))[3] ومن جميل شعره قوله فى مدح يحيى بن على الأندلسى[4]:

فـتكاتُ طـرفكِ أم سـيوف أبـيكِ ... وكـؤوسُ خمـرٍ أم مراشـف فـيك
أجـلادُ مـرهفةٍ وفـتكُ محاجـرٍ؟ ... مـا أنـتِ راحمـة ولا أهلـوكِ
يـا بـنتَ ذا الـسيفِ الطـويلِ نجـادُه ... أكـذا يجـوزُ الحكـم فـى ناديـكِ
قـد كـان يدعونـى خـيالكِ طارقـاً ... حتـى دعانـى بالقـنا داعـيكِ
عيـناكِ أم مغـناكِ مـوعدُنا وفـى ... وادى الكـرى نلقـاكِ أو واديـكِ
منعوكِ من سِنة الكرى وسروا، فلو ... عثـروا بطـيفِ طـارقٍ ظـنوكِ[5]

هذه الأبيات ابتدأها بمعانى التشبيب واصفا جمال الحبيبة بأسلوب استفهامى،

---

(١) إسماعيل بن عبد الرحمن بن على القرشى رحل من مصر إلى الأندلس فى زمن السلطان الحاكم المستنصر بالله عام (٣٦٠ هـ).ينظر: نفح الطيب، ٣/ ٦٩

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرى التلمسانى (ت:١٠٤١هـ)، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ٣/ ٧٠.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م ٣/ ٥.

(٤) يحيى بن على الأندلسى يرجع نسبه إلى عبد الحميد الجذامى أول من دخل الأندلس من أهل الشام وفد على المستنصر ثم عاد إلى المغرب. ينظر: البيان المغربى فى أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المكراشى، تحقيق ومراجعة: ج.س.كولان وأليفى بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ٢/ ٢٤٩-٢٧٩.

(٥) ديوان ابن هانىء، تحقيق وشرح: كرم البستانى، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٢م، ٢٦٤.

الغرض منه جلب انتباه المتلقى واستعار جمال العيون من الفتك والسيوف وطيب الريق من مراشف الخمر، وضمن هذه الأبيات ألفاظا مكانية اقترنت بهذا الغزل منها ((ناديك، وادى الكري)) وهذه الأمكنة سواء أكانت حقيقة أم خيالا فإنها مرتبطة بذكريات هذا الشاعر فهو يسأل عن اللقاء بمعشوقته، والوادى فى هذه الأبيات له دلالة إشارية تدل على احتواء هذه الأماكن على مشاعر وجدانية عشقية ولجأ الشاعر إلى استخدام قافية كاف المخاطب المكسورة ليؤكد صفة الخطاب فى النص.

ولابن هانئ قصيدة أخرى يرتبط فيها المكان بالزمان، فالزمن متمثل بالماضى والمكان متمثل بالديار التى قضى فيها أيام الصبا فيذكر عددا من الألفاظ المكانية التى لها وقع فى نفسه والتى أثارت الشجون وحركت المشاعر عند المرور بها ومنها ((منعج، الأطلال، الدار، الوادي)) وكل هذه الأمكنة مرتبطة بالحبيبة أى أنه عبر عن هذه الديار وما آلت إليه بعد الفراق بعاطفة صادقة ومشاعر حزينة، وموظفا لها موسيقى بحر الكامل مع قافية اللام المضموم. فقال:

ولقد مررتُ على الديارِ بمنعجٍ ... وبها الذى بى غيرَ أنّى السائلُ
فتوافقَ الطلانِ هذا دارسٌ ... فى بُردتى عصبٍ وهذا ماثلُ
فحما معالمَ ذا نجيعٌ سافكٌ ... ومحا معالم ذا مُلِثٌّ وابلُ
يا دارُ أشبهتِ المها فيكِ المها ... والسربَ إلا أنهنَّ مطافلُ
نضحت جوانحكِ الرياحُ بلؤلؤٍ ... للطلِّ فيه ردع مسكٍ جائلُ
وغدت بجيبٍ فيكِ مشقوقٍ، لها ... نفسٌ ترددهُ ودمعٌ هاملُ
هلا كعهدكِ والأراكُ أرائك ... والأثلُ بان والطّلولُ خمائلُ
إذ ذلك الوادى قنًا وأسنةٌ ... وإذا الديارُ مشاهدُ ومحافلُ[1]

فتشارك الشاعر مع الديار فى مشاعر الحزن والبعد فالديار حزينة لفراق أهلها

(١)ديوان ابن هانئ: ٢٦٩، منعج: اسم وادى، الماثل: الرسم الذاهب وأثره.

كحزن الشاعر على فراقهم، فالأطلال عفت آثارها بسفك الدم وسيل المطر ثم يوجه الخطاب لدار الحبيبة (هلا كعهدك) ويتذكر الزمان الماضى حين كان الأراك كالأسرة وآثار الديار كالرياض الزاهرة وحين كان ذلك الوادى عامرا بأهله[1]. وارتبطت هذه الأماكن بما تثيره من عواطف ((بحياة الإنسان العربى ارتباطا مصيريا، لأنها ملازمة له ملازمة الظل، وجعلته موقنا بالصلة الأزلية التى تشد بين الإنسان وأرضه))[2]، لتشكل باعثا موضوعيا لموقف الشاعر الذى لا يتأتى إلا من خلال معاناة ذاتية يمتزج فيها الحدث بالإحساس والواقع بالأمل هذا الباعث الموضوعى يكون ذا قدرة تأثيرية تعبر عن تقرير إيحائى لتجربة موضوعية للتعايش بين الشاعر والمكان.

وللشاعر نفسه قصائد أخرى اتخذ فيها المكان نقطة بداية للطريق فى قول الغزل ومنها:

قِفا فلأمرٍ ما سرينا وما نَسْرِى ... وإلا فمشياً مثل مشى القطا الكُدري
قِفا نتبين أين ذا البرق منهم ... ومن أين تسرى الريح عاطرة النشرِ
لعل ثرى الوادى الذى كنت مرةً ... أزورهم فيه تضوع للسفرِ
وإلا فذا وادٍ يسيل بعنبرٍ ... وإلا فما تدرى الركابُ ولا ندرى
أكل كِنَاسٍ، فى الصريم تظنه ... كناس الظباء الدعج والشدن العفرِ
فهل علموا أنى أسيرٌ بأرضهم ... وما لى بها، غيرُ التعسفِ من خبرِ
ومن عجبٍ أنى أسائلُ عنهم ... وهم بين أحناءِ الجوانحِ والصدرِ
ولى سكن تأتى الحوادث دونه ... فيبعد عن عينى ويقرب من فكرى
إذا ذكرته النفسُ جاشت لذكره ... كما عثرَ الساقى بكأسٍ من الخمرِ

---

(١) ينظر: تبيين المعانى فى شرح ديوان ابن هانى، د.زاهد على، مطبعة المعارض، مصر، ١٣٥٢هـ ٦٣٢-٦٣٣.

(٢) الشعر والتاريخ، د.نورى حمودى القيسى، دار الحرية للطباعة، بغداد، ٣٢، ١٩٨٠/ ٣٣.

لم يـــبقِ لى إلا حـــشاشة مغـــرمٍ طوى نفسَ الرمضاءِ فى خلل الجمرِ
ومـــا زلـــتُ ترمينـــى اللـــيالى بنـــبلِها وأرمـــى اللـــيالى بالـــتجلدِ والـــصبرِ[1]

ابتدأ ابن هانئ هذه الأبيات بفعل الأمر (قفا) طالبا من صاحبيه الوقوف على ديار الحبيبة- ونرى من هذه المقدمة تأثر شعراء الأندلس بشعر المشارقة- فهو الأمر الذى سروا من أجله وإذا تعذر الوقوف فالمشى البطيئ المتثاقل (مشى القطا) أفضل، لأنهم وصلوا إلى الأمر المطلوب وهو ديار الأحبة إلا أن الشاعر يقف متصبرا فى التعرف على دار الحبيبة فقد غيرت الليالى معالمها وأذهبت أنوارها، ويصور لنا الحالة النفسية التى يمر بها، هذه الحالة جعلته يشرف على الهلاك فلم يبق فى جسده إلا ذلك الرمق وتكاد تقضى عليه حرارة الحزن فى صدره، فالطلل حالة وليس مجرد بقايا آثار واستنطاقها حالة إنسانية وسببه الإنسان المشتاق إلى زمن ماض كامن فى ذاكرته.

ولابن هانئ أبيات أخرى تنبئ عن علاقة المكان وأثره فى قول الغزل حيث يقول:

قـــد مَـــرَرنا علـــى مغانـــيكِ تلـــكِ فـــرأينا فـــيها مـــشابهة مـــنكِ
عارضـــتنا المهـــا الخـــواذلُ أســـرا بـــاً بأجـــراعِها فلـــم نـــسلُ عـــنكِ
لا يُـــرعْ للمهـــا بـــدارِكِ ســـربٌ فلقـــد أشـــبهتكِ إن لم تكـــنكِ
مـسعدى، عُـجْ فقـد رأيـت معاجـى يـوم أبكـى علـى الـديار وتبكـى
بحـــنينٍ مـــرجعٍ كحنينـــى وتـــشكٍّ مـــردٍ كتـــشكّى
فاتَّـئد تـسكبِ الدمـوعَ كـسكبى ثـم لا تـسفك الـدماءَ كـسفكى.[2]

(١) ديوان ابن هانئ، ٢١٤-٢١٥، الصريم: الرملة المنصرمة من الرمال ذات الشجر، الدعج: الواحدة دعجاء: السوداء العين، الشدن، الواحد شادن: ولد الظبى..
(٢) ديوان ابن هانئ، ٢٦١، الأجرع: رملة مستوية لا تنبت شيئا.

أظهر لنا ابن هانئ فى هذه الأبيات مدى ارتباطه بتلك الديار فعند مروره بها ثارت الشجون وتحركت العواطف والأحاسيس فكل شيء يذكر بالحبيبة حتى الظباء التى ترعى فى الديار ينبغى أن تعامل معاملة خاصة بل يتمنى لها السلامة والأمن، لأنها تذكر بحبيبته. وهكذا نجد أن الديار عملت على تأدية ((وظيفة خلق الجو الشعرى الذى يمنح الشاعر القدرة على القول، لأنه يصبح فى حالة معاناة شعرية حادة تمده بالمشاعر التى تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس فى نفسه من الإحساسات ويدور فى ذهنه من الأفكار والحوادث))[1].

وابن هذيل[2] (٣٨٩ هـ) ممن بكى على الديار، واستذكر الربع والطلل، فراح فى وصفها أيما وصف، داعيا أنه وجد لذلك بوحا لمشاعره وأنفاسه، وما اكتفى بهذا البكاء والصراخ بل راح يطلب عدم اللوم على هذه المشاعر مهما كبرت، ولعل ابن حزم أشار إلى ذلك بقوله ((البكاء من علامات المحب ولكن يتفاضلون فيه، فمنهم عزيز الدمع، هامل الشؤون، تجيبه عينه، وتحضره عبرته إذا شاء، ومنهم جمود العين عديم الدمع))[3] وبناء على هذه المقولة النقدية التى ألمح إليها ابن حزم يكون بكاء ابن هذيل محمودا وطلبه عدم اللوم على هذا البكاء طلبا مشروعا جديرا بالأخذ فلنستمع لبكائه:

لا تلمنى على البكاء بدارٍ أهلُها صيَّروا السَّقام ضجيعى

---

(١) وحدة الموضوع فى القصيدة الجاهلية، ١٠.

(٢) ابن هذيل: أبو بكر يحيى بن هذيل بن عبد الملك التميمى القرطبى الكفيف ولد سنة (٣٠٥هـ) وكان من أهل العلم والأدب وأخذ عنه الرمادى وتوفى سنة (٣٨٩ هـ).
ينظر جذوة المقتبس فى تاريخ علماء الأندلس، للحميدى، تحقيق: إبراهيم الإبيارى، ط٢، ١٩٨٩م، / ٦١٧، بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس للضبى (٥٩ هـ)، تح: إبراهيم الإبيارى، دار الكتاب المصرى واللبنانى، بيروت، ٢/ ٦٨٣، معجم الأدباء، ياقوت الحموى (٢٢٦هـ)، مطبوعات دار المأمون، القاهرة، (د.ت)،٢/ ٣٩.

(٣) طوق الحمامة فى الألفة والألاف، ابن حزم الأندلسى، ضبطه بالشكل وفسر غامضه: سعيد محمد عقيل، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ٣٤.

جعلـــوا لى إلى الوصـــال ســـبيلا ثـم سـدوا علـىَّ بـاب الـرجوعِ[1]

إنها صورة ناطقة رسمت لنا تلك الديار على نحو فنى بديع لا ينبع إلا من قبل شعراء ينفعلون ثم يصورون ما جاشت به قرائحهم[2].

وإلى هذه التجربة ذهب ابن هذيل فى نص آخر بقوله:

عـرفتُ بعـرف الـريح أيـن تـيمَّموا وأيـن اسـتقلَّ الظَّاعـنون وخـيَّموا

خليلـى ردَّانـى إلى جانـب الحِمَـى فلـستُ إلى غـير الحِمَـى أتـيمَّمُ

أبـيتُ سمـير الفـرقدين كأنَّمـا وسـادى قـتادٌ أو ضـجيعى أرقـمُ

وأحـورَ وسـنان الجفُـون كأنـه قـضيبٌ مـن الـرَّيحان لـدنٌ مـنعمُ

نظـرتُ إلى أجفانـه أول الهـوى فأيقـنتُ أنـى لـست مـنهنَّ أسـلمُ

كمـــا أن إبـــراهيم أول مـــرةٍ رأى فى الدَّرارى أنه سوف يسقمُ[3]

إنه ولع شديد بالأحبة اقترن ولعه بذلك المكان الذى سوف يقصده بعد أن عرفه بطيب الريح فالاتصال بالمرأة هو ما يطمح إليه الشاعر فيطلب التوجه إلى جانب الحمى وهذه تجربة صادقة يمكن القول إن الشاعر قد عاشها.

ويطالعنا ابن جاخ[4] بمقطوعة شعرية ذابت فى حناياها أجمل معانى الغزل متخذا من الأطلال طريقا أو مسلكا لهذا الغزل فقال:

يـا نـاق عُوجى على الأطلال علَّ بها فهـم غـريبٌ يرانـى كـيف أَبكِـيهَا

أو كـيف أرفـض طيبَ العيش بعدهمُ أو كـيف أُسـيل دمعـى فـى مَغانِـيها

---

(١) شعر يحيى بن هذيل القرطبى الأندلسى، جمع وتحقيق ودراسة محمد على شوابكه، منشورات جامعة مؤتة، الأردن، ط١، ١٩٩٦م، ٩٧.

(٢) ينظر: فى الأدب الأندلسى، محمد كامل الفقى، دار الفكر العربى، ط١، ١٩٧٥م، ٧٦.

(٣) شعر يحيى بن هذيل القرطبى، ١١٩، القتاد: الشوك، أرقم: الحية..

(٤) ابن جاخ البطليوسى شاعر مشهور توفى قريبا من سنة (٤٠٠ هـ) وكان يقصد الملوك بالمدائح ويطيل. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٦٤٠، بغية الملتمس، ٢/ ٧١٨.

إنِّـــى لأكـــتم أشـــواقى وأســـترها جَهدى ولكـنَّ دَمع العين يُبديها[1]

أما الشريف الطليق[2] (ت قريبا من ٤٠٠هـ) فهو يصف لنا ارتباطه المشيمى بالرياض لما فيها من مشابهة لصفات محبوبته فيرى فى الزهر مبسمها أما نكهته فهى ريح الصبا وشاعرنا يمزج بين ذلك المكان الذى تميز بجمال طبيعى وجمال محبوبته فقد ((كانت الطبيعة الأندلسية ملهم الشعراء ومعينا لهم فى استنباط صورهم الشعرية من تشبيهات واستعارات وكنايات، وإسباغ لغتهم الواضحة الرقيقة أحيانا والجزلة أحيانا أخرى على هذه الصورة))[3] حيث يقول:

مـا الـروض قـد مُـزجت بـه أنـداؤه سـحراً بأطـيب مـن شَـذَا ذكـراهُ
والزهـر مبـسمه ونكهـته الـصبا والـورد أخـضله الـندى خـداهُ
فلـذاك أولـع بالـرياض لأنهـا أبـداً تذكرنـى بمـن أهـواهُ[4]

أما الربوع الخالية فقد كان لها نصيب هى الأخرى فى شعر الطليق فهذه الأماكن تعكس تجربة يائسة وتؤكد الواقع الحزين، لأنها ذات صلة بالواقع الاجتماعى، فجاءت التجربة لما تحمله من ألم وحرمان، لتعبر عن هموم الشاعر وتأملاته[5]. فالطليق فى هذه الربوع لا يجد غير ذكرياته مع المرأة ولهذا يقول فى تلك الأماكن:

رَبـــعٌ تربَّـــصتْ الـــنجومُ لأهلـــه ورمـــاهمُ رَيـــبُ الـــزمانِ فقرْطـــسا

---

(١) جذوة المقتبس، ٢/ ٦٤١.

(٢) أبو عبد الله مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر دخل سجن المطبق، لاتهامه بقتل أبيه بسبب جارية رباها أبوه معه ووعد بأن يزوجها إياه ثم استأثر هو بها وأطلق سراحه المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر لقب بالطليق ومكث فى السجن ستة عشر عاما، توفى قريبا من عام (٤٠٠ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٥٤٦-٥٤، بغية المتلمس، ٢/ ٦١٣، الحلة السيراء، لابن الأبار، تح: حسين مؤنس، ط١، ١٩٦٣م، ١/ ٢٢٠.

(٣) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الأندلسى، ٢١٤.

(٤) مع شعراء الأندلس والمتنبى سير ودراسات، أميليو غرسيه غومت، ترجمة: د. الطاهر أحمد مكى، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨م، ٧٧.

(٥) ينظر: المرثاة الغزلية، عناد غزوان، مط الزهراء، بغداد، ١٩٧٤م،٢.

فكأنّـــه مـــا تقـــادمَ عهـــدُهُ ربعُ امرئِ القيسِ القديمِ بعسعسا[1]

فالشريف كان لماحا إلى هذه الأمكنة وكانت تجربته معروفة من حيث الشجن والبكاء، فهى تذكرنا بتلك التجربة التى عاشها الأمير المخلوع والباكى الغريب امرؤ القيس فالشريف وفق فى استنطاقه لهذه التجربة من ناحيتين الأولى فنية ثقافية تعود إلى تجربته الأدبية باستيحاء تجربة الشاعر الجاهلى واستنطاقه والأخرى واقعية معاشة عندما جلب كل هذه الأمكنة والأطلال والربوع، لتحاكى تلك التجربة الفنية وتماثلها الدلالى. وقال أيضاً:

فَبَقِيتُ فى العرصات وحدى بعدهم حـــيران بـــين معاهـــد مـــا تُعَهـــدُ
فكـــأنهنَّ ديـــارُ مـــىٍّ إذْ خلـــتْ وكأنّـــى غـــيلان فـــيها يُنـــشِدُ[2]

أما فى هذا النص فقد تحول الشاعر فى ثقافته ليضع أمامنا حكاية ذى الرمة مع مي[3]، وهنا يبرع الشاعر الأندلسى الطليق فى استنطاق الربوع التى جاءت فى شعره لمضامين هذه الحكاية التراثية ولا سيما فى البيت الثانى عندما وصف دياره بأنها ديار مى وأن غيلان دخلها وبدأ ينشد فيها، لأن هذا الأخير لا ينشد كأى منشد إذ هو الخبير بموقع الكلام كما أنه المعروف بتجربته الغرامية التى ظل ينشد لمى وديارها وطوال حياته، وعلى أية حال شاعرنا الطليق شاعر مثقف أخذ بأسباب التراث الأدبى وأحسن استخدامه؛ فهو يبكى أطلال امرئ القيس وأحاديث ذى الرمة وهذه عناصر وفرت فى شعره إضاءة أدبية تركت أثرها المتميز على شعره كما أن المكان بقى الجامع الوحيد لأطلال امرئ القيس وأحاديث ذى الرمة ولديار الشريف.

إن ذكر الشعراء لهذه الأماكن لم يكن اعتباطا وإنما جاء وفق مطالب ذاتية

---

(١) مع شعراء الأندلس، والمتنبى، ٧٩.
(٢) المصدر نفسه، ٨٠.
(٣) ينظر: ذو الرمة شمولية الرؤية وبراعة التصوير، الدكتور خالد ناجى السامرائى، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠٠٢م، ٢٠.

واجتماعية ((من الناحية الذاتية نرى أن الشاعر قد وجد من الوقوف على الأطلال منطلقا يعبر من خلاله عن تجربته الوجودية فى مواجهة الزمان والمكان ومن ناحية الواقع نرى أن الشاعر يعبر من خلال هذه التجربة عن ارتباطه بقومه وأرضه التى عاش عليها معهم.. وتذكر الأهل والأحباب الظاعنين عنها)) الرمادى[1] فعبر[2] (٤٠٣ هـ) عن تلك الأماكن بقوله:

وقفتُ على الدار الخلاء كأننى ... وقفت على قلبٍ من الصبر بلقع

رميتُ جمار الدمع فى موقف النوى ... وقد طفتُ أسباعاً برسمٍ وأربعِ[3]

فهو وقف على تلك الدار وقلبه خال من الصبر، ويرمى حار الدموع، لأنها خالية من الأحباب وقوة هذه العلاقة بين الشاعر من جهة والمرأة والمكان من جهة أخرى، متأتية من إقامة الحبيبة وما ترتب عليه أثناء الإقامة من ذكريات أصبحت بعد الرحيل وقودا لعاطفة الشاعر.

لقد فجرت تلك الأماكن الحزن والأسى فى قلوب الشعراء فأنشدوا فيها شعرا يفيض عذوبة وجمالاً، وراح القسم الآخر يرى فى تلك الأماكن ما يطفئ نار الأسى والحزن وهذا ما ذهب إليه الأمير عبد الرحمن بن هشام[4] حين قال:

لقد طال صوم الحب عنك فما الذى ... يضرّك منه أن تكونى له فِطراً

---

(١) الإنسان والزمان فى الشعر الجاهلى، حسنى عبد الجليل يوسف، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٨م، ١٣٠.

(٢) أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى، شاعر أهل الأندلس المشهور وسمى بمتنبى الغرب وكان شاعر الحكم المستنصر وهو شاعر مكثر، سريع القول، توفى سنة (٤٠٣ هـ). ينظر ترجمته فى : الصلة لابن بشكوال، ٣/ ٩٦٩، المعجب، للمراكشى، وضع حواشيه: خليل عمران،ط١، ١٩٩٨م، ١٩-٢٠

(٣)شعر الرمادى، جمعه وقدم له: ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط١، ١٩٨٠م، ٨٣.

(٤) عبد الرحمن بن هشام المستظهر هو أبو المطرف عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بويع بالخلافة سنة (٤١٤ هـ) لقب بالمستظهر وكان مولده سنة (٣٩٢ هـ) دامت خلافته (٤٧) يوما وقتل سنة (٤١٤ هـ). ينظر: جذوة المقتبس ١/ ٥٦، البيان المغرب، ٣/ ١٣٥، الحلة السيراء، ٢/ ١٢

وإنـــى لأستـــشفى بمـــرّى بـــداركم هـــدوءاً وأستـــسقى لـــساكنها القطـــرا
وألـــصق أحـــشائى بـــبرد تـــرابها لأطفئ مـن نـار الأسى بكم جمرا[1]

فهو يستشفى بمروره بتلك الدار التى يجد فيها ما لا يجده فى غيرها فيلصق أحشاءه الحرى الملتهبة بها لعله يجد ببرد ترابها ما يطفئ جمر الحزن والألم.

وعلـق الدكتور إبراهيم بيضون على هذه القصيدة بأنها ((تندرج فى مصاف القصائد الرقيقة المنسوبة إلى أمراء بنى أمية فى الأندلس وهى تقترب فى سماتها من القصيـدة المشـرقيـة المتميزة بقوة الأسلوب ومتانة اللغة التى تبلغ أحيانا حد التقعر))[2].

فعبر الشعراء عن أحاسيسهم عبر تلك الأماكن تجاه المرأة التى ((شغلت وتشغل حياة الشاعر فى كل عصر من العصور فهى ليست موضوع غرامه ومسرح خياله فحسب بل إنها ذات أثر كبير فى نفسيته وتصرفاته كما أنها الدافع الأول فى إثارة شعوره وعاطفته))[3].

ويطالعنا ابن دراج القسطلى (٤٢١ هـ) فى مقدمة غزلية ضمنها أروع معانى الغزل ووصف الديار وهى مقدمة لقصيدة قيلت فى مديح المنصور حيث قال:

أضـــاء لهـــا فجـــر النهـــى فـــنهاها عـــن الدنـــفِ المـــضنى بحـــرٍّ هـــواها
وظلّلـــها صـــبحٌ جـــلا لـــيلة الدجـــى وقـــد كـــان يهـــديها إلى دجاهـــا
ويـــشفع لى مـــنها إلى الوصـــل مفـــرق يهـــلُّ إلـــيه حلـــيها وحلاهـــا
فـــيا للـــشبابِ الغـــضِّ أنهـــج بـــردُهُ ويالـــرياض اللهـــو جـــفَّ ســـفاها
....

(١) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، ١/ ٥٦، وينظر: الحلة السيراء، ٢/ ١٢.
(٢) الأمراء الأمويون الشعراء فى الأندلس دراسة فى أدب السلطة، تأليف، الدكتور إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٧م، ٢٠٧.
(٣) المطلع التقليدى فى القصيدة العربية، ١١٧.

سلامُ على شرخِ الشباب مردَّدُ ... وآهـا لوصل الغانيات وآهـا

وبالديار اللهو أقوت رُسومها ... ومَحَّتْ مغانيها وصمَّ صداها

وخَبَّر عنها سحق أثلمَ خاشع ... كهالة بدرٍ بشَّرت بحباها

فيا حبذا تلك الرسومُ وحبذا ... نوافح تهديدها إلى صباها

تهادى المها الوحشى فى عرصاتها ... يذكرنيه آنسات مهاها

ومبتسم الأحباب فى جنباتها ... أقاح كساهنَّ الربيع رُباها

دعوت لها سقيا الحيا ودعا الهوى ... وبَرْحُ الهوى دمعى لها فسقاها[1]

من خلال هذه المقدمة الغزلية والتى قرن فيها ابن دراج ذكر المرأة والتغزل بها بأماكن الانتماء (ديار اللهو والرسوم والعرصات)، ثم شوق للمكان هذا الشوق يبين مدى الارتباط النفسى بين ذات الشاعر والمكان فالذات تناجى الديار وتصف لنا المكان بأسلوب حزين وتعلن عن ألمها ولوعة الفراق ولا دواء لهذا الألم غير الدعاء لتلك الديار بالسقيا، وجاءت هذه القصيدة على قافية الهاء المطلقة، لتوافق غرض الشاعر وعلق الدكتور أحمد هيكل بقوله ((كانت تلك القصيدة مبعث حسد للقسطلى ومثار تشكيك الوشاة فيه فقد خاف كثيرون ممن حول المنصور من شعراء وأدباء وأن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطلة على مكانتهم))[2].

ونلمح هذه الفاعلية للمكان فى قول الغزل عند ابن شهيد (٤٢٦ هـ) فى قوله:

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلى، حققه وعلق عليه وقدم له: الدكتور محمود على مكى، منشورات المكتب الإسلامى بدمشق، ط١، ١٩٦١م، ١٠-١١، الشحق: هوالثوب البالى الخلق، الأثلم: كالأثلب التراب والحجارة.

(٢) الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة،د. أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، ١٩٧٩م، ٣٠٥.

خَلِيلـى عُـوجا بـارك الله فـيكما ... بـدارتِها الأَولى نُحَيّـى فـناءها

ولا تَمنعَانِـى أن أجُـودَ بأدمـعٍ ... حَـوَاها الجَـوى لّمـا نَظَـرتُ حِـواءَهَا

فأُقـسم مـا شِـمْتُ الغـداةَ وقُـودها ... وقد شِمْتُ ما رابَ الحِمى وأساءَهَا

مـيادينُ أفـراسِ الـصِّبا ومـراتعٌ ... رَتعـتُ بهـا حتَّـى أَلِفـتُ ظِـباءَهَا

فلـم أرَ أسـرابًا كأسـرابها الدَّمـى ... ولا ذئبَ مثلى قد رعى ثـمَّ شاءَهَا

ولا كـضلالٍ كـان أهـدَى لـصبوتى ... لـيالى يهدينـى الغـرام خِـباءَهَا

ومـا هـاجَ هـذا الـشوقَ إلا حمـائمٌ ... بكـيتُ لهَـا لمـا سمعـتُ بُكَاءَهَـا

تَغَـنَّ فـلا يـبعد بـذى الأيـكِ عاشـقٌ ... بكـى بـين ليلـى فاسْـتَحَثّ غَـنَاءَهَا

عجبتُ لنفسى كيف مِّلكهـا الهـوى ... وكـيف اسـتفزَّ الغانـياتُ إبَاءَاهـا[1]

فى هذه الأبيات ابتدأ ابن شهيد بكلمة (خليلي) ونلمح فيها تأثره بالشعراء المشارقة فقد طلب من صاحبيه الإقامة بدارتها الأولى وطلب منها عدم منعه من البكاء لما رآها وتذكر أيام الصبا وما أثار هذا الشوق إلا نوح الحمام، فبكى لبكائه لكن هناك فرق بين البكاءين. ثم يتعجب من نفسه كيف امتلكه الهوى بهذه الصورة حتى نسى كل شيء، وهام فى حبها وحب ديارها.

ويذهب ابن شهيد إلى هذه المعانى فى قصيدة أخرى، واصفا فيها الوقوف على دار الأحبة متذكرا أيام الصبا منشئا علاقة حميمة بين المرأة وذلك المكان، الذى ظل ملجأ لذات الشاعر ينتقى من مكوناته ومفرداته ما يناسبها وجدانيا، ليكون تركيبا شعريا يتلاءم مع نفسه الحزينة فقال:

هاتِـيكَ دارهـم فقـفْ بمَاغَانِهـا ... تجـدِ الدمـوعُ تجِـدُّ فـى همَلانِهَـا

---

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسى، جمعه وحققه: يعقوب زكى، راجعه: د. محمود على مكى، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت)، ٨٢-٨٣.

عُجنا الـرِّكابَ بهـا فهـيَّج وجـدَنَا دمـنُ ذعـرنَ الـسربَ مـن إدمَانِهَـا

دارٌ عَهـدتُ بهـا الـصِّبا لى دوحـةً أتفـيأُ الفـرحاتِ مـن أفْـنَانِهَا

أرعـى علـى بقـر الأنـيس بجـوِّها وأُحكِّـم الـصبواتِ فـى غِـزلانِهَا[1]

حيث ارتبط ابن شهيد بتلك الدار، لإعادة صورة الماضى البعيد، فوقفت الذات عند تلك الأمكنة حزينة متألمة، وجادت العيون بدموع، جسدت ألم الفراق وظلت تمده بالمشاعر التى تمكنه من التنفيس عن كل ما يحتبس فى نفسه من الأحاسيس، وكل هذا يكشف لنا مدى الارتباط النفسى بين الشاعر والمكان.

وخلاصة القول أن المكان بقى لدى شعراء الأندلس مستودعاً يلجأ إليه الشعراء فى حالة فقدان الحبيبة فكلما مر الشعراء بتلك الديار ألهبت مشاعرهم، وأثارت شجونهم، وحركت أحاسيسهم، فتارة تذكر بالفناء والخراب لما آلت إليه تلك الأماكن،وتارة تذكر بالحب وتمده بالسعادة فهى الرابط الوحيد الباقى بعد فراق الأحبة بل وأصبح طريقا للحديث عن ذكريات الشاعر مع المرأة وكل هذه الشواهد التى مرت بنا نلمس فيها عاطفة صادقة بثتها تلك الذات متفاعلة مع المكان.

---

(١) ديوان ابن شهيد، ١٦٥.

المبحث الثانى

المكان والمديح

يعد المديح من الأغراض الشعرية التى لها حضور دائم فى الشعر العربى ويمكن القول إنه التغنى بالفضائل من كرم وعفة وسماحة وقوة وشجاعة إلى غير ذلك من السجايا وقد ((رافق قيثارة الشعر العربى منذ وجودها الأول فكان وترا مرنان الصوت فيها))[1].

والمديح فى الشعر العربى مرده إلى أمرين الأول: أن يكون الدافع وراء المديح هو تحقيق منافع مادية ودنيوية أى دافع تكسبى، وهذا النوع من الشعر لا يصدر عن عاطفة صادقة، أما الأمر الآخر : أن يكون الدافع وراء المديح هو الإعجاب بالممدوح فيشيد الشاعر بما أثار إعجابه من صفات، ويكون صادرا عن محبة سرت فى الدم، وود تغلغل فى أعماقه، فأنطقه بالصدق والبراءة والإخلاص.

والمديح فى الشعر الأندلسى لا يكاد يخرج عن هذين الغرضين ولا سيما فى هذه الحقبة (٩٢هـ-٤٢٢هـ) ومما ساعد على ازدهار هذا الغرض أن أمراء الأندلس قد فتحوا الأبواب على مصراعيها أمام الشعراء فأخذوا ((يقطعون الأندلس طولا وعرضا، ينتجعون قصور الأمراء حيث يظفرون بالمأوى والصلات ويحضرون مجالس أصحاب الأمر وتدرج أسماؤهم فى سجلات الدواوين وتقرر لهم الأرزاق وتخلع عليهم وظائف التدريس))[2].

---

١١) فن المديح وتطوره فى الشعر العربى، أحمد أبو حاقة، منشورات دار الشرق الجديد،بيروت ،ط١، ١٩٦٢م، ١٤.

(٢) الشعر الأندلسى، غارسيه غومس، ترجمة: د. حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٥٦م، ٤٦.

ويبدو أن أمراء الأندلس كانوا قد اتخذوا ((من أفواه الشعراء أبواق دعاية))[١] فظهرت القصيدة الأندلسية بنكهتها العربية، والسبب فى ذلك هو أن الشعر لم يكن ليخرج من إطاره العام الذى نهجه الأقدمون.

ويطالعنا فى هذه الحقبة جملة من شعراء المديح وعلى رأسهم ابن هانئ وابن دراج وهذا الأخير أكثر من المديح بصورة ملفتة للنظر فجاء أغلب ديوانه فى هذا الغرض. وهذا مرجعه إلى البيئة التى عاش فيها فقد عاش فى كنف الأمراء متنولا العطايا والهدايا. وقد ساعد على جذب الشعراء إلى حواضر الأمراء كونهم-أى الأمراء- فى الغالب من الشعراء، فهذا الداخل[٢] يصفه الحميدى بقوله: ((كان من أهل العلم.. وله أدب وشعر)) [٣] أما عبد الرحمن الناصر فقد كان ((أندى الناس كفًّا على الشعراء))[٤].

واتخذ شعراء الأندلس من المكان وسيلة للوصول إلى الممدوح فأصبح أشبه بالينبوع يستمد منه الشعراء مادتهم وظل ((وسيلة الشعراء للتعبير عن قيم الوجود الإنسانى والمثل العليا فى المجتمع)) [٥] وجسد المكان بدلالاته ورموزه مادة ذات شأن لدى المادحين يجدون فيه ما يطمئن صدر الممدوح وما يطبع عليه من شموخ وكبرياء فوصف أماكن الرحلة وبيان أهوالها ومخاطرها وما قطع من المفارز والأماكن الخالية القصد منه بلوغ الممدوح والتقرب إليه.

وكان شعراء الأندلس يذكرون من الأماكن ما يتلاءم مع مقام الممدوح، وذلك لأن الشاعر((عندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح وإنما يحاول أن يرسم

---

(١) اتجاهات الشعر الأندلسى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى، ١٦٤.

(٢) أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك لقب بالداخل وخلع أبو جعفر المنصور عليه لقب (صقر قريش) كانت ولادته عام ١١٣هـ وكان راجح الحلم (ت: ١٧٢هـ). ينظر : بغية الملتمس، ١/ ٣٢.

(٣) جذوة المقتبس، ١/ ٣٧.

(٤) الأدب العربى فى الأندلس، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٧٦م، ٧٩.

(٥)المكان في الشعر العربى قبل الإسلام، ٣٢٧

صورة شخصية تتمثل فيها كل الصفات التى يقدرها المجتمع، شخصية مثالية قد تكون بعيدة كل البعد عن الممدوح إلا أن الشاعر يحاول طبعا أن يربطها بشخصيته))[1].

والشاعر عندما يمدح يبدأ بذكر الأماكن الخالية والغريبة وصولا إلى الأماكن الأليفة التى يحلم الشاعر بالوصول إليها وهى أماكن الممدوح أو يذكر الأماكن التى لها وقع خاص فى نفس الممدوح، لأن ((لطافة الخروج إلى المديح سبب ارتياح الممدوح))[2] ومن هذا المنطلق زاوج الشعراء بين المكان والمديح.

أما عن المعانى والألفاظ التى طرقها شعراء الأندلس فى هذه الحقبة الزمنية فإنها ليست بمعان جديدة وإنما هى معان وألفاظ تكاد تكون مشرقية ولا سيما فى بداية الفتح ((ولكن الأندلسيين استطاعوا أن يعرضوا ما قلدوا فى ثوب جديد وتأنقوا فى رسمه وتلوينه حتى إنك لتنسى أصله وتحسبه معنى جديداً وعرضا طريفا، إنهم يأخذونهم بالتحوير أو النقص أو الزيادة أو الشرح حتى تحس شخصيتهم فيه واضحة جلية ولا يسعك إلا أن تعترف لهم بالتجديد والابتكار))[3].

ويمكن الولوج فى هذا المبحث من خلال شقين.

الأول: المكان والرحلة ودلالته فى قصيدة المديح.

الثانى: الأمكنة الدينية والطبيعية ودلالتها فى قصيدة المديح.

أولاً: المكان والرحلة ودلالته فى قصية المديح.

إن وصف الرحلة فى قصيدة المديح هو تعبير عن انفعال فنى مبدع، وانفعال

---

(١) إشبيلية فى القرن الخامس، د.صلاح خالص، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨١م، ٨٨-٨٩.

(٢) العمدة، ١/ ٢١٧

(٣) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى، سعد إسماعيل شلبى، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٧٣م، ٧٢.

نفسى مفتعل، فيلجأ الشاعر إلى تحديد المكان إذ لابد أن تتضمن الرحلة الانتقال والحركة وتبدأ من مكان وتنتهى بالمكان المقصود. وتنطلق رؤية الذات للمكان فى الرحلة من كونه مكانا للخطر والمصاعب الذى تجتازه الذات بإرادة قوية قاصدة الممدوح.

والرحلة ((تعبير أدبى بواسطة اللغة عن انتقال يقوم به الإنسان ماديا أو ذهنيا عبر إبعاد الزمان والمكان والخيال انتقالا حقيقيا أو متخيلا مع ما يصاحب هذا الانتقال من متغيرات شعورية ووجدانية فى ذات الإنسان))[1].

وما يهمنا فى هذا المجال هو وصف الشاعر للمكان أثناء الرحلة ثم الدخول إلى المديح ويصاحب هذه الرحلة دوافع نفسية وإنسانية ووجهات نظر فلسفية وجدانية، وأول من يطالعنا فى هذا الشيء هو عباس بن ناصح[2] (توفى بعد ٢٣٠هـ) حين قصد الحكم الربضى واصفا رحلته عندما استغاثت امرأة فى وادى الحجارة ولهذا يقول:

تململتُ فى وادى الحجارة مسهدا ... أراعى نجوماً ما يردن تغيّراً
إليكَ أبا العاصى نضيتُ مطيتى ... تسيرُ بهمّ سارياً ومهجّراً
تدارك نساء العالمينِ بنصرةٍ ... فإنك أهلٌ أن تغيث وتنصُرا[3]

فالشاعر قد وصف لنا صورة فى غاية الدقة تصور الحالة النفسية التى قضى فيها

---

(١) الرحلة فى أدب أبى العلاء المعرى، ماجد حميد فرج (رسالة ماجستير)،كلية التربية الجامعة المستنصرية، ١٩٩٩م، ٤؛ وينظر: الطبيعتان الحية والصامتة فى الشعر الجاهلى، بهيج مجيد القنطار، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ٤١-٤٢.

(٢) أبو العلاء عباس بن ناصح الثقفى من أهل الجزيرة الخضراء رحل مع أبيه إلى مصر نشأ بها وتردد إلى الحجاز ثم العراق طالبا العلم ثم رحل بعد ذلك إلى الأندلس وكان عالما وشاعرا ولدى الخلفاء. ينظر: تاريخ علماء الأندلس (للفرضي)، ٢/ ٥٠٤؛ المغرب فى حلى المغرب، حققه: شوقى ضيف، ط ٣،دار المعارف، القاهرة، ١/ ٣٢٤

(٣) نفح الطيب، ١/ ٣٤٣.

ليله ساهرا يرقب النجوم فى انتظار الصباح ليجد السير إلى الحكم وقد أتعب مطيته من السير حتى هزلت بسبب رحلته ومسيرته فى آخر الليل ووقت الظهيرة، ليصل إلى الممدوح طالبا منه نصرة أهل وادى الحجارة، والملاحظ أن هذه الأبيات قد جاءت ((بعاطفة شعورية فاقت بها نفس الشاعر فترجم أفكاره وأحاسيسه إلى أصوات عالية النبرة تنفيساً عن الشعور الجياش فى نفسه))[1].

وهذه حسانة التميمية[2] تصف بمقطوعة شعرية رحلتها وما آلت إليه من مصاعب ومتاعب قاصدة الأمير عبد الرحمن الأوسط قائلة:

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى ... على شحطٍ تصلى بنار الهواجرِ

ليجبر صدعى إنه خيرُ جابر ... ويمنعنى من ذى الظلامة جابرِ

فإنى وأيتامى بقبضة كفه ... كذى ريش أضحى فى مخالف كاسرِ

جدير لمثلى أن يقال مروعةٌ ... لموت أبى العاصِ الذى كان ناصرى

سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدى ... على زمان باطشٌ بطشَ قادرِ

أيمحو الذى خطتهُ يمناهُ جابر ... لقد سام بالأملاك إحدى الكبائرِ[3]

فى هذا النص وصف للمكان الصعب ومخاطره، ذلك المكان الخالى القفر الحار فهو يلج بالحرارة لبعد المكان، إلا أن فى نفسها أمل أن يجبر حالها وما آلت إليه هى وأيتامها لحد ما، وقد روعت لفقدان من كان يرعاها فصارت كطير

---

(١) اتجاهات الشعر الأندلسى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى، ٦١.

(٢) حسانة بنت أبى الحسين الشاعر من أهل البيرة وهى من أولى الشواعر اللواتى اشتهرن بالأندلس تعلمت ودرست فنشأت نشأة طهر وعفاف توفى والدها ولجأت إلى الأمير الحكم ابن هشام لمساعدتها على صروف الدهر، توفيت فى القرن الثالث الهجرى. ينظر: نفح الطيب، ٤/ ١٦٧؛ تاريخ الفكر الأندلسى، تأليف: باليتشيا، أنخل كونثالث، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٥م، ٥٧-٥٨.

(٣) نفح الطيب، ٤/ ١٦٨.

وقد انقضت عليه الجوارح، وسبب انتخابها لهذا المكان المتصل بالصعوبة، لتعبر عن معاناة شدائد الحياة منتهية بشكوى النفس وحالها. وقد استهلت الشاعرة أبياتها ((بالمعنى التقليدى على عادة الشعراء القدماء حين صورت نفسها بعيدة وقد شدت الرحال فى اتجاه الممدوح ولكن على الرغم من ذلك يبقى هذا المعنى جميلا، لأنه يعبر بصدق عن واقع تلك المرأة الجريحة التى كانت تعانى الأمرين))[1].

وتأتى الرحلة فى شعر ابن هانئ على شاكلة رحلته الظعن ولا سيما أن شاعرنا عرف بالتقليد والاتباع والسير على نهج الأقدمين وأظن أنى استشهدت بنصوص وفيرة فى مبحث المكان والغزل دلت بإنصاف على سير ابن هانئ فى نهج الأقدمين فى النظم تركيبًا ودلالة وألفاظا والآن لنقف على رحلته حين قال:

أيحسبُ سارى الليلةِ البدرَ واحدًا ... وفى كلِّ الأظعانِ ثانٍ وثالثُ

سرينَ بقضْبِ البان وهى موائدُ ... تثنَّى وكُثبِ الرَّمل وهى عثاعثُ

أريدُ لهذا الشمل جمعًا كعهدنا ... وتأبى خطوبٌ للنوى وحوادث

عَبثتُ زمانًا بالليالى وصرفها ... فها هى بى لو تعلمون عوابثُ

لئن كان عشقُ النفس للنفس قاتلاً ... فإنى عن حتفى بكفّى باحث

وإن كان عمرُ المرءِ مثل سَماحِه ... فإنَّ أميرُ الزابِ للأرضِ وارثُ[2]

هذه الأبيات هى جزء من قصيدة مدح بها جعفر بن على الأندلسي[3]. وقد اتخذ

---

(١) الشعر النسوى الأندلسى أغراضه وخصائصه الفنية، سعد بو فلاقة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م، ٤٥.

(٢) ديوان ابن هانئ، ٢٠٤-٢٠٥، العثاعث: الواحد عثعث: الكثيب السهل.

(٣) جعفر بن على بن حمدون كان أبوه على بن حمدون بن سماك بن مسعود الجذامى يعرف بابن الأندلس وفى سنة ٣٦٥هـ خرج من قرطبة جعفر ويحيى (أخوه) قائدين إلى الغرب من العدوة وبين أيديهما الألوية والطبول مزيلين للوزير يحيى بن هشا. ينظر : البيان المغرب، ٢/ ٢٤٩، تبيين المعانى، المقدمة، ٤٨.

ابن هانئ من وصف هذه الرحلة وما تضمنت سبيلاً للوصول إلى الممدوح، إذ شبه الجوارى بالبدور وأشرك الشاعر الليل فى عمله فوصف هذه الرحلة فى تلك الليلة، ونزول حوادث الزمان به بعد أن كان لا يـ مه حوادثه فوصفه لهذه المعاناة القصد منه الخروج إلى الممدوح، إذن جمع فى هذه الأبيات بين الغزل ووصف الرحلة-ليلا- لبلوغ الممدوح.

ولا يخرج ابن دراج القسطلى عن هذا الأسلوب والنمط الشعرى المؤثر فى ممدوحه فيقول:

ذُلُلاً تعسفنَ الدُّجى بأذلةٍ	ولواغباً جُبنَ الفلاَ بلواغبِ
وكواكبٌ ناءتْ بغربتها النَّوى	فَقَضَتْ مدامِعُها بنوءِ الغاربِ
من كلِّ مفجوعٍ بترحهِ راحلٍ	لم يسلهِ طمعٌ بفرحةِ آيبِ
كَذَبتهُ بارِقَةُ المُنى عن صادقٍ	من ظَنِّهِ وصَدَقْتهُ عن كاذبِ
ظُعنٌ سرينَ الليلَ ضربةَ لازمٍ	وسرى إليها الهم ضربةَ لازبِ
جَمُدتْ عليهن القلوبُ فأسبَلتْ	فوقَ المحاجرِ كلَّ قلبٍ ذائبِ
وتخازرتْ عنها العيونُ فأبرزت	عن أعيُنٍ بدمائهنَّ سواكبِ
وتقطعت أسبابُهنَّ لطيةٍ	وصلت بِهِن سباسباً بسباسبِ
يطلبنَ شأو غرائبٍ لى كلَّما	نأت البلادُ حللن غير غرائبِ
لحقت بأسبابِ السماء فأعطيت	فيها خلودَ أهلةٍ وكواكبِ[1]

حرص ابن دراج فى الأبيات على الأسلوب الشعرى القديم وهو وصف الرحلة ثم التخلص إلى الممدوح فذكر ولوجه فى الصحراء المقفرة وسريان الظعن ليلا وقلق

(١) ديوان ابن دراج القسطلى، ١٦٧-١٦٨.

الشاعر وخوفه على السائرين فى ذلك المكان. وهذا الوصف للمكان وخوفه من مصاعبه يحمل معنى العزم والهمة للاتجاه صوب الممدوح.

ثانياً: الأمكنة الدينية والطبيعية ودلالتهما فى قصيدة المديح.

اتصف المكان بعدة صفات ودلالات كثيرة واقترن بأحداث كثيرة، لذلك شغل العديد من المفكرين والفلاسفة والأدباء[1] حتى ((أصبح فيما بعد مرآة تعكس الصدى النفسى للشخصية حيث يتماثل- دلالة وتركيبا- مع ما يحتمل فى أعماقها))[2]، وارتبط بالعمل الأدبى أشد ارتباط فهو يفقد خصوصيته، العمل الأدبى، عندما يفقد المكانية وبالتالى يفقد أصالته[3].

إن الشاعر عندما يريد مدح شخص ما فإنه يلجأ إلى أجمل الأساليب المتمثلة بالإيضاح والمعانى الجزلة والألفاظ النقية والإشادة بالممدوح فى أجمل الصفات[4]، واللجوء إلى ذكر أفضل الأماكن التى تليق بمقام الممدوح، وليس هناك أفضل من المكان الدينى والطبيعى على حد سواء فى اقترانه بقصائد المديح. فيبدأ الشاعر بالمزج بين تلك الأماكن وشخصية الممدوح كأن تكون تلك الديار متشوقة إليه أو تزهو بزهوه وفقاً لوصف الشاعر، لأن ((إثارة الشعور والإحساس مقدمة فى الشعر على إثارة الفكرة))[5].

أما المكان الطبيعى فيتجسد فى مظاهر تكوينه التي((تتسم بالسعة والامتداد والارتفاع والانبساط والشدة))[6].

---

(١) ينظر: مدخل جديد إلى الفلسفة، ١٩٦، فن الشعر، أرسطو طاليس، تح: عبد الرحمن بدوى، بيروت، ١٩٧٣م، ٢٠، المعجم الفلسفى، جميل حنبيا، بيروت، ط١، ١٩٧٣، ٤١٢.

(٢) هامشية المكان فى رواية غانم الدباغ، د. إبراهيم جنداري، مج آداب الرافدين، ع٢٣، ١٩٩٢م، ٢٠٥.

(٣)ينظر: جماليات المكان، جاستون باشلار، ٦٠.

(٤) ينظر: العمدة، ٢/ ١٢٨

(٥) النقد الأدبى الحديث، محمد غنيمى هلال، دار الثقافة ودار العودة، بيروت، ١٩٧٣م، ٣٧٦.

(٦) الزمان والمكان فى شعر أبى الطيب المتنبى، ١٥٧.

وأول من يطالعنا من شعراء الأندلس فى إضفاء دلالات المكان الطبيعى على الممدوح هو ابن عبد ربه (ت:٣٢٨هـ) بل وربما جعل من صفات الممدوح تتجاوز صفات ذلك المكان وقد زاوج بين البحر والقمر والممدوح لما لهذين المكانين من دلالة بارزة ومعروفة لدى أغلب الشعراء. فالبحر معروف عنه بصفات الجود والاتساع أما القمر فهو الآخر وصف بالجمال والعلو، وعلى الرغم من هذه الصفات الجميلة فإن ابن عبد ربه يرى فى ممدوحه أكثر من هذا الشيء فهو القائل:

فكرتُ فيكَ أبحرٌ أنتَ أم قمرٌ ... فقد تحيّرَ فكرى بينَ هذينِ

إن قلتُ: بحرًا وجدتُ البحرَ منحسرًا ... وبحرُ جُودكَ ممتدُّ العبابَينِ

أو قلتَ: بدراً رأيتُ البدرَ منتقصاً ... فقلتُ: شتانَ ما بينَ البدرينِ[1]

فهو يصف لنا شدة تحيره فى وصف ممدوحه فإن قرنه بالبحر ذلك المكان المتسع وجد البحر قاصرا عن بحر جوده، وإن قرنه بالبدر وجد البدر ينقص شيئا فشيئا حتى يصل إلى المحاق لا يرتقى إلى صفات ممدوحه فالبون بينهما كبير.

وعلى الرغم من هذه المبالغة فى وصف الممدوح الذى كان كريما مع الشاعر إلا أننا نلمح فيها أسلوبا رشيقا وموسيقى عذبة رفعت من القيمة الفنية لهذه الأبيات[2]. وربما كان وراء هذه المبالغة فى إضفاء الصفات على الممدوح ارتباط خيال الشاعر ((ارتباطاً كبيرا بالعواطف ولهذا كلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوى يعين على إظهار روعتها ويزيد من درجة تأثيرها))[3].

وكرر ابن عبد ربه معانى قصيدته الأولى مرة أخرى لوجود الأهمية لممدوحه، ولأنه أعز بشمائله وأخلاقه فراح يخلد هاتيك الصفات والشمائل بما عهد على الشعر

---

(١) ديوان ابن عبد ربه، ١٦٨.

(٢) ينظر: اتجاهات الشعر الأندلسى إلى نهاية القرن الثالث الهجرى، ١٣٧.

(٣) فى النقد الأدبى، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط٢، ١٩٧٢م، ١١٨.

من تمتعه بسمات الخلود، وبقائه ينشد على مر الأزمان والأماكن واختلاف الممدوحين والشعراء، يقول ابن عبد ربه:

وغُـــرّة يحـــسرُ عـــنها الطـــرفلإ ... مكـــارمٌ يقـــصُرُ عـــنها الوصـــفُ

وهمّـــــةٌ ترقـــــى إلى الـــــسماءِ ... وشـــيمةٌ كالـــصابِ أو كالمـــاءِ

يـــريك بـــدعًا مـــن عظـــيمٍ شـــأنهِ ... وانظـــر إلى الـــرفيع مـــن بنـــيانه

إذا لجَـــــتْ عُفاتُـــــهُ إلـــــيهِ ... لـــو خايـــلَ البحـــرُ نـــدَى يديـــهِ

لفـــــاض أو لكـــــاد أن يفيـــــضا ... ولاســـتحى مـــن بعـــد أن يَفيـــضَا[1]

فى هذه الأبيات يمدح الخليفة الناصر ويضفى عليه دلالات المكان المتسع والعالى المتمثل بالماء والسماء فمكارمه يتعذر عنها الوصف وشيمته كالماء أما همته فهى عالية علو السماء أما البحر فلوكايل ندى يديه لفاض من جود يديه ونرى من هذه الأبيات تحرر الشاعر من القافية من أجل اتساع المعنى والقصد فلذلك نرى فى هذه الأبيات رقة الألفاظ وصفاءها كصفاء الماء.

أما المكان الدينى فى قصيدة المديح فلنلمس أثره واضحا فى أشعار ابن هانئ وأكثر ما لجأ إليه هى الأماكن المقدسة والتى ضمنها فى أشعاره المدحية وأبرز هذه الأماكن هى مكة وشعابها فضلاً عن أماكن مقدسة أخرى عكس دلالات تلك الأمكنة على الممدوح مضيفا عليه هالة دينية وهو القائل:

هـــذا الـــشفيعُ لأمـــةٍ يأتـــى بهـــا ... وجـــدودهُ لجـــدودِها شَـــفعاءُ

هـــذا أمـــينُ اللهِ بـــين عـــبادهِ ... وبـــلادهِ إن عُـــدَّتِ الأمـــناءُ

هـــذا الـــذى عَطفـــتْ عليـــه مكّـــةٌ ... وشِـــعابها والـــرُّكن والـــبطحاءُ

هـــذا الأغـــرُّ الأزهـــرُ المـــتألف المـــ ... تدفـــقُ المتـــبلجُ الوَضّـــاءُ

---

(١)ديوان ابن عبد ربه، ١٨٣.

فعلـيه مـن سِـيمَا النبـى دلالـةٌ وعلـيهِ مـن نـورِ الإلـه بَهـاءُ

ورثَ المقـيم بيثـربٍ فالمنـبر الأ علـى لـه والترعـةُ العلـياءُ[1]

هذه الأبيات هى جزء من قصيدة مدح بها المعز لدين الله فذكر عدداً من الأماكن الدينية والمتمثلة بـ (مكة، الركن، البطحاء، يثرب، الروضة العلياء)، وكلها أماكن لها خصوصية دينية أضفت على الممدوح صبغة دينية وبخاصة أن القصيدة قيلت فى مناسبة دينية وهى حلول شهر رمضان، فقد جعل من هذه الأماكن تزداد إليه شوقا وتحن إليه كيف لا وهو سلالة جده إبراهيم عليه السلام وقد لجأ ابن هانئ فى هذه الأبيات إلى استخدام اسم الإشارة (هذا) بشكل ملفت للنظر وربما كان القصد هو إضفاء الهيبة على ممدوحه وهناك من ذهب إلى ((أن اسم الإشارة حاجة معنوية لكنه فى الشعر ليس كذلك، لذلك هو حاجة لفظية قبل كل شىء))[2].

ونلمح فى هذه الأبيات تأثرا واضحا بالشاعر الشرقى الفرزدق، وذلك فى قصيدته التى مدح بها الإمام على زين العابدين رضى الله عنه والتى مطلعها:

هـذا الـذى تعـرف الـبطحاء وطأتـه والبـيت يعـرفه والحـلُّ والحـرمُ[3]

حيث نلاحظ أن ابن هانئ أكثر من اسم الإشارة هذا كما أن هناك بعض الألفاظ والمعانى التى تشارك فيها الشاعران مثل (البطحاء والركن) والتأكيد على ارتقاء نسب الممدوحين إلى شجرة الأنبياء وأن نور بيت النبوة قد أضاء عليهما[4].

---

(١) ديوان ابن هانئ ١٥-١٦.

(٢) الإشارة فى شعر المتنبى، د. هادى الحمدانى، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع٢٠، ١٩٧٦م، ١١٩.

(٣) شرح ديوان الفرزدق، ٢/ ٣٥٣.

(٤) ينظر: دراسات فى النص الشعرى عصر صدرى الإسلام وبنى أمية، د.عبده بدوى، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط١، ١٩٨٧م، ٢٣٧-٢٤١.

ويذهب شاعرنا إلى ذات الألفاظ والمعانى فى أبيات أخرى وفى مدح الأمير عينه يقول:

وكأنّـى بـك قـد هـزجتَ ملبـيًا ... وهـدجتَ بـين شعابِ مكـة والـصفا
وكأننّـى بلـواءِ نـصركَ خافقًـا ... قـد حـامَ بـين المـروتينِ ورفـرفا
والحِجـرِ مطلعًـا إلـيك تـشوقا ... والـرُكن مهتـزّاً إلـيك تـشوّفا
وخطـبتُ قـبل القـوم خطـبة فيـصلٍ ... أُثنـى علـيك فـوعدُ ربّـك قـد وفـى
وخطـبتُ بالـزوراءِ أخـرى مـثلها ... ووقفـتُ بـين يـديكَ هـذا المـوقِفا[1]

فوجد ابن هانئ فى هذه الأماكن (شعاب مكة، الصفا والمروة، الحجر والركن) ضالته فاتخذها مصدرا بدلالاتها الدينية، لتلائم مقام الممدوح فهى لم تأت اعتباطا فى ذهن الشاعر، لأن ((المكان يشير إلى دلالات رمزية لأشياء ومواقف أو حوادث كان لهاحضور عند الشاعر))[2] حيث حمل ابن هانئ تلك الأماكن رسالته، لتبلغ ما استودع قلبه من مشاعر واستطاع من خلالها أن يوظف هذه المفردات وإضفاؤها على الممدوح، بحيث يصبح ذا فرادة وسمو وبهجة وكرم وبطولة وغيرها من الصفات التى لا ينافسه غيره عليها.

وللشاعر نفسه قصيدة أخرى يمدح فيها القائد جوهر قائلا فيها:

فقـد ضَـرِعتْ منـه الرواسـى لمـا رأتْ ... فكيف قلوب الإنس والإنس أضرعُ
فـلا عـسكرٌ مـن قـبلِ عـسكرِ جوهـرٍ ... تخـبُّ المطايـا فـيه عـشراً وتوضِـع
تـسيرُ الجـبالُ الجامـداتُ بـسيرهِ ... وتـسجدُ مـن أدنـى الخفيـفِ وتـركعُ
إذا حـلَّ فـى أرضٍ بـناها مدائـناً ... وإن سارَعن أرضٍ ثَوَتْ وهى بلقعُ[3]

---

(١) ديوان ابن هانئ، ٩٢-٩٣.
(٢) جماليات المكان فى شعر عرار، ٢١٩.
(٣) ديوان ابن هانئ، ٣٥٢-٣٥٣، الحفيف: الصوت، البلقع: الخالى.

فهو يجعل من تلك الجبال ذليلة أمام هذا القائد بل وتسير بسيره، وتسجد وتركع بمجرد سماعها صوته، فهو ينشر الخير والعمران فى كل مكان يمر به، والأرض التى يغادرها تصبح صحراء خالية من الحياة.

وقال أيضاً.

ألا أيُها الوادى المقدسُ بالطوى ... وأهلُ الندى قلبى إليك مشوقُ

ويا أيها القصر المنيفُ قِبابُه ... على الزّاب لا يُسددْ إليك طريقُ

ويا مَلِكَ الزاب الرفيع عمادُه ... بقيتَ لجمع المجدِ وهى فريقُ

فما أنسَ لا أنسَ الأمير إذا بَدَا ... يروع بحرَّى ملكه ويروقُ[1]

فهنا يتشوق إلى كل الأمكنة التى ضمت ممدوحه، بدءًا بالوادى المقدس الواقع فى الشام والقصر العالى البارز القباب، ويتذكر أيام عز الممدوح عندما يظهر له ويجرى فى ملكه وقد أشار إلى القباب وهذا تأثر مشرقى فهى رمز مستوحى من التراث وهى عند العرب طراز من الخيام تضرب للسادات والأشراف والملوك[2].

وكثيراً ما استخدمها الشعراء رمزًا للكرم والسيادة المطلقة[3].

وخلاصة القول فى مديح ابن هانئ أنه((لم يكن يمتدح أحدًا إلا لمحبة سرت فى دمه وود تغلغل فى أعماقه فأنطقه بالصدق والبراءة والإخلاص))[4].

أما ابن شخيص[5] (توفى بعد ٤٠٠هـ) فقد نظم أبياتا فى مدح الخليفة الحكم ابن

---

(١) تبيين المعانى فى شرح ديوانى ابن هانئ، ٨١٦.

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد على، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ٥/ ٧-٦.

(٣) ينظر : المفضليات للضبى، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٦٤م، ٣٦-٥٦.

(٤) ابن هانئ الأندلسى، عارف تامر، منشورات دار الشرق الجديد، بيروت، ط٢، (د.ت)،٣٣.

(٥) محمد بن مطرف بن شخيص يكنى أبا عبد الله من أهل الأدب المعروفين ومن أعيان الشعراء المتقدمين متصرفا فى القول سالكا فى أساليب الجد والهزل، وكان من أهل قرطبة اتصل بالمنصور بن عامر توفى بعد (٤٠٠هـ). ينظر : جذوة المقتبس ، ١١٤٩، بغية الملتمس، ١/ ١٦٨، تاريخ الأدب العربى، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ٩٨١م،٤/ ٩٢٩.

عبد الرحمن الناصر[1] (ت: ٣٦٦هـ) بالغ فيها أى مبالغة عندما جعل جنان الخلد (ذلك المكان المقدس) مجنونة من طول انتظارها للمدوح بقوله:

أظنُّ جنَان الخُلدِ جُنَّت صبابةً ... إليه فَدَارتْ حين طالَ انتظارُها

إذا ابتهلَ الحجاجُ بالشعبِ من مِنَى ... وقد حانَ عن رمى الجمارِ انحدارهُا

حكى هزجَ الأطيارِ ليلاً عَجيجُها ... ومُستترَ النّوارِ صُبحاً جِمارُها[2]

وبعيدا عن المكان الدينى كان للمكان الطبيعى دور فاعل فهذا وليد بن مسلم المرادي[3] يجعل من كرم الممدوح أسمى وأصفى من ماء النهر حين قال:

أما ترى النهر يا منصور كيف طفا ... وعمَّ ما جاور العبرين بالضررِ

وأعجب لجوادك لم يفن الورى غرقاً ... فيه وقد عمَّ أهل البدوِّ والحضرِ

ما ذاك إلا لأن الجود عنصره ... صافٍ مميزٌ وهذا بيّنُ الكدرِ

وإن عهدى به والشمل تعبره ... وإذا انقشع عنه وابلُ المطرِ

وكم أرى منه من بعد عزته ... سيعود كالكلب من الودِّ إلى حجرِ[4]

فرأى هذا الشاعر طغيان ماء النهر، وما تسبب فيه من ضرر مناسبة للتعجب من جود الممدوح الذى عم أهل الحضر والبادية، ومرد هذا أن منبع الممدوح هو الجود والكرم إلا أن جود الممدوح يختلف عن جود النهر فهذا عذب رائق وجود النهر عكر.

---

(١) الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبدالرحمن الداخل، كنيته أبوالمطرف، بويع للخلافة فى (٣٥٠ هـ)، واستمر إلى أن توفى عام (٣٦٦ هـ)، لقب بالمستنصر بالله. ينظر: البيان المغرب، ٢/ ٢٢٢.

(٢) شعر ابن شخيص الأندلسى، جمع وتقديم: أحمد عبد القاهر صلاحية، دار ابن القيم للنشر، ١٩٩٢ م، ٥٢.

(٣) وليد بن مسلم المرادى، يكنى بأبى العباس ومن شعراء الدولة العامرية.ينظر: بغية الملتمس، ٢/ ٦٤٨.

(٤) بغية الملتمس، ٢/ ٦٤٨.

والملاحظ أن الشاعر الأندلسى كان ينطلق من هذه الدلالات المرتبطة بالمكان ويلجأ إليها سواء أكان مقدسا أم طبيعيا ويجعل منها معادلا كفوءً الكرم الممدوح ((فهى أرض كريمة جمعت من المحاسن ما هز المشاعر وشحذ القرائح وساعد على الإبداع فرسموا بها أروع الصور واستلهموا بها أروع الصور واستلهموا من حسنها وبهائها أعذب الألحان))[1]، ولابن شهيد قصيدة جميلة فى مدح عبد العزيز المؤتمن استهلها بوصف جميل للرياض وصاغ منها دررا تليق بمقام الممدوح قائلاً:

أمـــا الـــرياحُ بجـــوٍّ عاصـــمْ ... فحلـــبنَ أخـــلافَ الغمـــائمْ

سَـــهِرَ الحـــيا برياضِـــها ... فأســـالها والـــنورُ نـــائمْ

حتـــى اغـــتدتْ زهـــراتُها ... كالغـــيدِ بـــاللُّجج العـــوائمْ

مـــن ثيـــبٍّاتٍ مـــل تُـــبلْ ... كـــشفَ الخُـــدودِ ولا المعاصِـــمْ

وصـــغارِ أبكـــارٍ شَـــكتْ ... خجـــلاً فعـــاذت بالكمـــائِمْ

وردٌ كمـــا خَجِلَـــتْ خُـــدُو ... دُ العـــينِ مـــن لحظـــاتٍ هـــائمْ

وشـــقيق نعمـــان شـــكت ... صـــفحاته مـــن لطـــم لاطـــمْ

وغـــصونُ أشـــجارٍ حكـــتْ ... رقْـــص المـــآثِمِ للمـــآثمْ

مـــن باســـمٍ بـــاك إلـــي ... كَ نَـــد وبـــاكٍ وهـــو باســـمْ[2]

إنها أبيات تدفقت من قريحة الشاعر فأغمرتنا بتلك الألفاظ والمعانى الجميلة، فقد وجد ضالته فى ذلك المكان-الرياض- وجعل منه وعاء رحبا محببا إلى نفس ممدوحه حتى الرياح فى تلك الرياض جالبة للخير، فيشبه زهورها بالنساء ذوات الأعين النجل اللواتى تحمر خجلا من نظرات المراقبين، ويشبهها أيضاً بالخدود المحمرة من اللطم وقد تضمنت هذه القصيدة ((أكثر الخصائص التى اتصف بها

---

(١) فى الشعر الأندلسى، د.عدنان صالح مصطفى، دار الثقافة، الدوحة، ط١، ١٩٨٧م، ١٥.

(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسى، ١٥٥.

شعر الطبيعة فى الأندلس من حيث خفة المعانى وحلاوة الألفاظ ورشاقة التعبير وطـرافـة الصـور وجمال القافية وقصر البحر فى إطار بهيج من بهاء الطبيعة ومتعة اللهو))[1].

وخلاصة القول أن شعراء المديح فى الأندلس استطاعوا أن ينفذوا إلى نفوس ممدوحيهم وأهوائهم ورسموا لنا لوحدات جذابة ناطقة بالصدق فى المشاعر والعواطف، وظل المكان بقسميه الدينى والطبيعى وأماكن الرحلة مصدر وحى وإلهام للشعراء الأندلسيين ، وجسدوا من تلك الأماكن ما يناسب مقام الممدوح.

(١) ملامح الشعر الأندلسى، د. عمر الدقاق، منشورات دار الشروق، بيروت، ١٩٧٥،٢١٩.

obeikandl.com

المبحث الثالث

المكان والوصف

الوصف غرض شعرى له مكانته فى الشعر العربى قديما وحديثا فهو ينقلنا إلى عالم آخر يخلقه لنا الشاعر وينقل ما فيه من دلالات نفسية وفكرية. لذلك كان من شروط الوصف أن يكون ((سمحا سهل مخارج الحروف من مواقعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة))[١].

وعن الشعر يقول ابن رشيق: ((الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف))[٢] ولقد حبا الله الأندلس بطبيعة خلابة ((و قد كان من أثر جمال الأندلس أن شغفت بها القلوب، وهامت بها النفوس فتعلق بها الأندلسيون جميعا وأقبلوا يسرحون النظر فى خمائلها ويستمتعون بمفاتنها ما شاء لهم الاستمتاع))[٣]. كيف لا وقد قال عنها الرازى ((كريمة البقعة بطبع الخلقة طيبة التربة، مخصبة القاعة، منبعة العيون الثراء، متفجرة بالأنهار الغزار...معتدلة الهواء أكثر الأزمان لا يزيد قيظها زيادة مكفهرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها فى أعم سنيها تأتى على قدر من الاعتدال وتوسط فى حال))[٤] ولهذا جاء وصفهم تعبيرا عن استجابة هذه النفوس الشاعرة لرغبتها فى التمتع بجمال الطبيعة أو الاستجابة لتأثير مظاهر الجمال. وقد أضفت

---

١) نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر (٣٧٧هـ)، تح: د. كمال مصطفى، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط١٩٧٨،٣م، ١١٨-١١٩.

(٢) العمدة، ٢/ ٢٩٤.

(٣) الطبيعة فى الشعر الأندلسى. د.جودة الركابى، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩م، ١٤.

(٤) نفح الطيب، ١/ ١٤٠.

الحضارة الجديدة الوافدة إلى البلاد ((من الرقى ما جعل سكانها يحافظون على روح الجمال الطبيعى فى بلدهم وينمونه ويزيدون فيه فأصبحت الأندلس أغنية عذبة فى فم الشاعر ينشدها وهو بين ظهرانيها وأنشودة ساحرة على لسانه يرددها وهو مغترب عنها))[1]، فقيل فيها أجمل الأوصاف، وراح الشعراء يرسمون بالكلمات ما رأت عيونهم من جمال لذلك المكان حتى فاض نتاجهم فى هذا المجال، وظلت الأندلس مكانا معطاء أمد الشعراء بأجمل الأوصاف وصاغوا من الألفاظ لآلئ تليق به.

فالشاعر يريد أن يخلق من خلال الوصف صلة بينه وبين المكان وقد يصبح صورة لأمانيه وتطلعاته أو قد يصبح علامة دالة على واقعه المعاش ووضعه اليومى ((ومن المعروف أن لكل مكان أفعاله الخاصة، ولكل فعل سمات مكانية خاصة))[2]. فسيطر على مخيلة الشعراء وما عاد يمكنهم التخلص من أسره المحبب وهذا مما لا شك فيه، لأن ((الشاعر ذواق ذو إحساس مرهف تنطبع على قريحته الصافية وفى عقله الخصيب الصور الفاتنة المرائى النابضة بالحياة))[3].ويمكن لنا أن نلج إلى هذا المبحث من خلال مكانين هما:

أولاً: وصف المكان الطبيعى.

ثانياً: وصف المكان الحضرى.

أولاً: المكان الطبيعى.

وهو المكان الذى يستمد جماله من الطبيعة والذى قليلا ما يكون للإنسان دور فى إضفاء هذا الجمال وأولى تلك الأماكن التى جذبت أنظار الشعراء وفتحت

---

(١) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٥م، ٢٣.

(٢) دلالة المكان فى قصص الأطفال ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٥م، ٦.

(٣) فى الأدب الأندلسى،٦٨.

قرائحهم هى الأنهار، فقد أكثروا فيها الوصف متأملين ما فيها من جمال وصفاء. وأول من يطالعنا فى وصفه للأنهار هو محمد بن الحسين الطارئ[1] (٣٩٤ هـ) حيث يقول:

وكـأنَّ مجـرى المـاءِ بـين سُـطوحه ... مجرى مياهِ الوصلِ فى كبد الصَّدى
فـى مـثل أصـراحِ الـزُّجاجِ مـرخمٌ ... ومـسطَّحٌ يحكـى احمـرارَ المجـسدِ[2]

فهو يشبه جريان الماء فى النهر كوصل الحبيب للمحبوب بعد طول هجر. ويصف هذا النهر مرة أخرى وصفا بديعا فهو مكسو بالضفة وإذا استقام رأيت عليه رونق وإذا استدار فهو كسوار حول معصم ولنستمع لقوله:

والنهـــرُ مكـــسوٌّ غلالـــةَ فِـــضَّةٍ ... فـإذا جـرى سـيلُ فـثوبُ نـضار
وإذا اسـتقامَ رأيـتَ رونـقَ مُتـصلٍ ... وإذا اسـتدارَ رأيـتَ عِطـفَ سـوارِ[3]

وهـذا أسـلوب كثيرًا مـا لجـأ إليـه شعـراء الأنـدلس قبل الطارئ ((لأن التشكيل المكانى فى القصيدة كالتشكيل الزمانى معناه إخضاع الطبيعة لحركة النفس وحاجاتها))[4] فهذا ابن هذيل القرطبى (٣٨٩ هـ) يصف لنا أرضا عاطرة النواحى حيث يقول:

والأرضُ عاطـرةُ النّواحـى غـضَّةٌ ... خـضراءُ فـى ثـوبِ أغـرَّ جديـدِ
والمـاءُ تدفعُـهُ إلـيكَ مـتاعبٌ ... شـتَّى مـن الميـثاءِ والجُلمُـود

---

(١) محمدبن الحسين الطبنى الطارئ لقب بالطارئ، لأنه طرأ على قرطبة من طبنة وهى مركز منطقة الزاب بالعدوة ولد سنة (٣٠٠هـ) ودخل الأندلس سنة (٣٢٥هـ)واتصل بالحكم المستنصر فى حكم أبيه الناصر وكان شاعرا مكثرا وأديبًا توفى سنة (٣٩٤هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ٤٧، تاريخ علماء الأندلس، ٢/ ٤٠٩، البغية، ١/ ٩٥، المغرب، ١/ ٢٠١، الصلة، ٣/ ٨٦١.

(٢) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، لأبى عبدالله محمد بن الكتانى الطبيب (ت:٤٢٠هـ)، تح: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د.ت)، ٦٣-٦٤.

(٣) المصدر نفسه، ٦٤.

(٤) التفسير نفسه للأدب، ٦٥.

صافٍ على صفةِ المها ومذاقُهُ شهدٌ فَخُذ من طيبِ وبرودِ
ملأ التلاّع فأقبلت وكأنّها هجماتُ حيَّتِ ذواتِ حقودِ
تنحو إلى حالِ الغطيطِ وربَّما زَأرتْ فتسمعها زئيرَ أسودِ
وتثيرُ طافية الحصى فكأنّها دلّت على الساعاتِ فَهمَ بَليدِ[1]

فهو يصف تلك الرياض العاطرة بخضرتها والماء تدفعه تلك القلعة المتوسطة فى ذلك المجرى الذى انعكس إيجابيا على جمالية المكان ويشبهه بهجمات حاقدة وصوت الماء كزئير الأسد، إنه فنان أبدع وصور.

فأعجب الشاعر الأندلسى بتلك الأماكن ((فهى جنته الفيحاء التى أعجب بها، وشاطره هذا الإعجاب أهل المغرب والمشرق على حد سواء))[2].

ولم يكتف بوصف المشهد الطبيعى الذى يراه وإنما كان يتناول مشاهد الخيال ويشملها برعايته وعنايته. فهذا الشريف الطليق يصف لنا جدولا هو الآخر حين قال:

وكأن الماء فيها ثعابين لُجين تبعثت فى السواقى
وكأن الحصباء فى رونق الماء سنا الدُّر فى بياض التراقى[3]

فهو الآخر يشبه حركة الماء بحركة الثعابين أما قاع ذلك المكان فهو أشبه بجوهر قد شع نوره على نحر غادة بيضاء.

إن علاقة الشاعر بالمكان الطبيعى هى علاقة متجددة عبر الشعر بل وتتحول هذه العلاقة إلى علاقة التحام وانتماء حتى يكاد المكان يمتلك الشاعر امتلاكا روحيا

---

(١) شعر يحيى بن هذيل القرطبى، ٨٣.
(٢) تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى، على محمد حودى، دار الكتاب العربى، مصر، ط ١، ١٩٥٧م، ١.
(٣) مع شعراء الأندلس والمتنبى، ٨٠.

وجسديا وبحيث لا يمكن للشاعر التخلص من أسر قيوده ولم يعد المكان وعاء خارجيا يضم جسد الشاعر بل تجاوز هذا الحد وأصبح يتغلغل فى شعاب روحه ويلتحم معها[1].

ومن هذا المنطلق وهذه الرؤية يكمن سر العلاقة بين الشاعر والرياض فقد منحه هذا المكان مشاعر جياشة وعواطف صادقة نابعة منه فوجد فى جمالها ضالته بل ومأوى لنفسه المضطربة ويطالعنا ابن عبد ربه بقوله:

وروضةٍ عقدتْ أيدى الربيع بها ... نورًا بنورٍ وترويجًا بترويجِ
بُلقح من سواريها وملقحةٍ ... وناتج عن غواديها ومنتوجِ
توشّحتْ بمُلاةٍ غير مُلحمةٍ ... من نورها ورداء غير منسُوجِ
فألبست حُلل الموشّى زهرتها ... وجلّلتها بأنماطِ الدَّيابيجِ[2]

فهوى يصف جمال تلك الروضة التى عقدت أيدى الربيع بها فتبرز روح الشاعر المنفتحة فى ذلك المكان والممتزجة به مظهرا كل الصفات الجمالية له.

إن السمة الغالبة على مفردات هذا المكان-الرياض- هى التنويع والتكرار وإضفاء صفات الزهو والبهجة والنور عليه وهذا ما وجدناه لدى سليمان بن بطال[3] (توفى قريبا من ٤٠٠هـ) حيث يقول:

تبدَّتْ لنا الأرض مزهُوَّة ... علينا ببهجة أثوابها
كأن أزاهرها أكؤُسٌ ... حَدتْها أنامل شُرّابها
كأن الغصون لها أذرعٌ ... تناولها بعض أصحابها

(١) ينظر: المكان والرؤية الإبداعية، نادية غازى العزاوى، مجلة آفاق عربية، آذار، نيسان، السنة الثالثة والعشرون، ١٩٩٨م، ٤٠.
(٢) ديوان ابن عبد ربه، ٣٧.
(٣) أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوسى كان فقيها مقدما وشاعرا محسنا توفى قريباً من (٤٠٠ هـ). ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٣٤٤، البغية، ٢/ ٣٧٩.

وقد أعجب النَّور فيها الذباب ... فيهزجُ من فرط إعجابها
كأن تعانُقها في الجنُوب ... تعانقُ خودٍ وأترابها
كأن تَرقُرق أجفانها ... بُكاها لِفرقة أحبابها[1]

إن هذا النص يكشف لنا عن وضع الشاعر النفسى والحياة والظروف المحيطة به فهو يصف لنا بهجة تلك الرياض وزهوها فيشبه أزهارها بالكؤوس، والغصون أذرع ويشبه ملاقاة الزهر لنسيم الجنوب كتعانق المرأة مع حبيبها وقد بكت لفراقه ولجأ الشاعر إلى الإكثار من أداة التشبيه محاولا إضفاء تليق بتلك الرياض.

ولم يكن الرمادى أقل شأنا فى هذا المجال من الشعراء الآخرين فقد صور لنا جمالية الروض وسقوط المطر عليه فأصبح وكأنه ثوب قد نسجت خيوطه وطرزت باللؤلؤ فقال:

بكت السحابُ على الرياض فحسَّنتْ ... منها غروسًا من دموع ثكُولِ
فكأنَّها والطلُّ يشرقُ فوقها ... وشيٌ يحاك بلؤلؤٍ مَفصُولِ[2]

وقد ارتبط شعراء الأندلس بهذا المكان ارتباطا وثيقاً وحيويا لما له من ميزة خاصة ونكهة فريدة وجدوها فيه فهذا ابن النظام[3] يقول:

أما ترى المزنُ كيف ينتخبُ ... ودمعه فى الرياض منسكبُ
والأرضُ مسرورةٌ بزينتها ... مما بها يستخفه الطربُ
قد لبست من ثيابها حللاً ... وزينتها الوشيُ والقصبُ

---

(١)البديع فى وصف الربيع، للأديب أبى الوليد إسماعيل بن عامر الحميرى (توفى قريبا من ٤٤٠ هـ)، اعتنى بنشره وجمعه: الأستاذ هنرى بيرس، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، المطبعة الاقتصادية، الرباط، ١٩٤٠م، ١٤.

(٢)شعر الرمادى، ١٠٧.

(٣) عبد الملك بن عبد الحكم يعرف بابن النظام من شعراء المنصور بن أبى عامر وكنيته أبو بكر الكاتب، نظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٤٥٢.

وقـــد بـــدت للـــبهارِ ألـــوية يغـض مـسكا طلـوعها عجـبُ[1]

إذا أعجب هذا الشاعر وتعجب بتلك الرياض فيتساءل عن السحب كيف تسكب دموعها على تلك الرياض فالأرض جادت بزينتها وسرورها وقد لبست من ثيابها حللا وهى ترقص فرحا وطربا مما جادت المزن عليها فنشرت عبير ورودها.

وقريب من هذا الإعجاب ما ذهب إليه على بن أبى الحسين[2] فى وصفه لتلك الرياض بقوله:

كأنمـــا الـــروضَ هَـــيفْاَ فـــى حَلّـــةٍ ووشـــاحِ
تـــشيرُ غمـــزًا عليـــنا بنـــرجسٍ وإقـــاحِ
تُقـــولُ مـــن عـــافَ وصـــلى فمـــا لـــه مـــن فـــلاح[3]

إنه يضفى عليها بعض الصفات الإنسانية فهى عادة طويلة القوام تشير إلى الشاعر لا بنظرة بل بالنرجس والأقحوان وكأنها تقول له قد خسر كل من لم يواصل هذا الجمال.

إن مهمة الشاعر الوصاف لتلك الرياض لا تعدو أن تكون كمهمة الرسام إذ يعمد فى أغلب الأحيان إلى نقل مشاهد ذلك المكان بكل جزئياته محاولا المزج بينها وبين نفسه فهذا عبادة بن ماء السماء[4] (توفى بعد ٤٢٢ هـ) يصفها بقوله:

---

(١) جذوة المقتبس، ٢/ ٤٥٢،وينظر: بغية الملتمس، ٢/ ٢٩٤

(٢) على بن محمد بن الحسن أبو الحسين صاحب كتاب التشبيهات من أشهار أهل الأندلس توفى بحدود (٤٢٠ هـ). ينظر: بغية المتلمس، ٢/ ٥٤١، الصلة، ٢/ ٦٠١

(٣) التشبيهات، ٤٧.

(٤) عبادة بن عبدالله الأنصارى من ذرية سعد بن عبادة وقيل له: ابن ماء السماء، لجدهم الأول من فحول شعراء الأندلس ومن المداحين المعروفين أكثر من مدحه للمنصور بن أبى عامر، وقد تكسب بالشعر، وله كتاب فى أخبار الأندلسن توفى بعد ٤٢٢ هـ. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٤٦٣، مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس، تأليف الفتح بن خاقان الأندلس، تحقيق: د.هدى شوكت بهنام، دار الغصون، بيروت، ١٦٠.

وتمايلـــتْ أغـــصانها مـــيَّادةً مـثل أتْمِـيَاد الخـودُ حـلَّ خِمارُهـا
وتـضَّوعتْ ريـحُ الجـنوبِ خلالهـا فحكـى لـك المسكَ الذكـى بهارُهـا
وكـــأنّ شـــدوَ ذُبابهـــا وغـــناءهُ عـزفُ القـيانِ تـناوحتْ أوتارُهـا[1]

فتمايل أغصانها كتمايل فتاة وقد نزع عنها خمارها ولاعب النسيم هذه الأغصان فتضوع أريج الزهور، حتى تحول طنين الذباب إلى غناء القيان وعزفها على الأوتار.

إن المكان مملوء بعدة أشياء يزخر بها العالم الخارجى هذه الأشياء تجسد قوة هائلة يتفاعل معها الإنسان أما عن وظيفة وصف المكان فهى تجسيد جمالية الأشياء فيه[2]. لذلك أقبل الشاعر الأندلسى ((مع ثقافته الشعرية على الطبيعة فتأملها وأمعن التأمل ثم استخرج من المعانى أروعها ونظم من الأخيلة أجملها ولهذا يقرأ الإنسان سلطان الطبيعة على النفس، تأسر البصر بعض أزاهيرها ثم تمنح الحرية للنفس))[3].

وخلاصة القول أن الشاعر الأندلسى ارتبط بذلك المكان ارتباطا روحيا وملك شغافه واتخذ منه ملجأ وملاذا للذات يسكب فيه الهموم ويأخذ منه الراحة النفسية، إنه مسكن الروح.

ثانياً: وصف المكان الحضرى.

هو المكان الذى صنعه الإنسان وأوجده الفكر البشرى وهو يدل على مدى الترف والثراء والوضع الاجتماعى والسلطة والسيادة ويمكن إجمال هذا النوع من الأمكنة بالقصور،وقد أسرف أمراء الأندلس فى بناء القصور فتطاولوا بالبناء

---

(١) التشبيهات ، ٤٨.

(٢)ينظر: بناء الرواية دراسة مقارنة فى ثلاثية نجيب محفوظ، د. سيزا القاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ١٠٠، وينظر: المكان فى الشعر العربى قبل الإسلام، ٢٨٩.

(٣) شعر الطبيعة فى الأدب العربى،د. سيد نوفل، دار المعارف، ٢٧٣.

وشيدوا فى كل مدينة صرحاً حضارية من الناحية السياسية والاجتماعية، فقد أصبحت مراكز جذب واستقطاب للعلماء والأدباء والتجار، وقصدها الناس من كل حدب وصوب، ولعل أكثر من أسرف فى بناء تلك القصور هو عبد الرحمن الأوسط، كل هذا الشيء كان من نتائجه إلهاب خيال الشعراء وشحذ قرائحهم، فأعجبتهم تلك الأماكن، فراحوا يصفون ما فيها من جمال وعلو وشموخ، مما شارك بشكل فعلى فى نضوج الوصف فى تلك الحقبة.

إنها منازل الملوك ومظهر من مظاهر الترف وهيبة ملكهم على الأرض، إنها المكان الذى يميز السادة عن غيرهم[1]، والقصر بمعناه الأوسع ((يحمل دلالات كثيرة ويتعدى ذلك إلى مفاهيم أوسع وأشمل فهو الوطن والكيان الذى يحمل الرمز والتاريخ والمطامح)) ولنستمع إلى بديع وصف عباس بن فرناس[2] لأحد القصور يقول:

حنايا كأمثالِ الأهلة رُكبت ... على عمدٍ تُعتدُّ فى جوهر البدرِ

كأن من الياقوتِ قيست رؤوسُها ... على كل مسنونٍ مقبضٍ من السدرِ

....

ترى الباسقات الناشراتِ فروعها ... موائس فيها من مزاولةِ الوفرِ

كأن صباغًا صاغ بين غصونها ... من الذهب البادى عراجين من تَمْرِ

نشت لؤلؤًا ثم استحالت زمرَّدًا ... يؤول إلى العِقيان قبل جنى البُسرِ[3]

---

(١)دلالات المكان فى تعميق الجو النفسى للشخصية فى الفلم السينمائى، ناديه فاروق، رسالة ماجستير، كلية الفنون الجميلة، جامعة بغداد،٢٠٠١م،٢٦.

(٢)أبو القاسم عباس بن فرناس مولى بنى أمية، كان فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن، وكان شاعراً أديبا مشهورا برز فى الفلسفة والنجوم، توفى بعد (٢٨٤ هـ). ينظر: الجذوة، ٢/ ٥٠٢، البغية، ٢/ ٥٦١، المغرب،١/ ٣٣٣.

(٣) ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، للدكتور صلاح جرار، مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى، ع٣٩، السنة الرابعة عشرة، ١٩٩٠م، ١٦٠-١٦١.

فيصف الشاعر أقواس القباب بالأهلة من حيث استدارتها وعلوها، وهذه الأهلة قائمة على أعمدة كأنها من الياقوت، وقد وجد الشاعر فيها شبها بين هذه الأعمدة وزخارها بالنخل وقد حملت بأعذاق التمر المختلف ألوانه.

وهذا الحسن بن حسان[1] هو الآخر يفتتن كل الافتتان بروعة هذه القصور ولهذا يقول:

مقاصيرُ تحتجُّ السماءُ وتدَّعى ... على الأرض فيها باحتجاجٍ موكّدِ
ومن غُرفٍ فيها حنايا كأنها ... مثانى عبيرٍ فوقَ أصداغِ خُرّد
ومن عمدٍ تُزهى بماءِ محاسنٍ ... يُصوِّبُ عنه كلُّ طرفٍ مُصعّدِ
حكت حمرُها الياقوت والدرَّ بيضُها ... ومن خضرها اشتُقَّ اخضرارُ الزبرجدِ
يجولُ السنا فيها مجالَ الشعاع فى ... صفيحةِ سيفِ الصَّقيل المتقلِّدِ
أيبْأى سليمانُ بصرحٍ ممرّدٍ ... وقصرُك فيه كلُّ صرحٍ مُمرّدِ
عشيقٌ ومعشوقٌ ويهوٌ وزاهرٌ ... إلى كاملٍ فى حسنه ومُحدَّد
وعُلّيَّةُ تُدعى المنيف كأنما ... ذوائِبها نِيطَتْ بنسرٍ وفرقدِ
مجالسُ طالت فى السماءِ وأشرَقتْ ... متى تبدُ للأبصارِ تَقْرُب وتبعُدِ
ظلامُ الدجى فيها نهارٌ كأنما ... تروحُ وتمسى الشمسُ فيها وتغتدى
كأنَّ صدى الأنفاس بين صحونها ... أهازيجُ ترنيم الحمامِ المغرِّدِ[2]

---

(١) هو أبو على الحسن بن حسان يعرف بالساط، كان شاعراً مقدما مكثراً فى أيام عبد الرحمن الناس (٣٠٠-٣٥٠هـ).ينظر: الجذوة، ١/ ٢٩٥، البغية،١/ ٢٣٢.

(٢) التشبيهات، ٧٧-٧٨.

فقد استطاع هذا الشاعر أن يصف لنا تلك القصور وما امتازت به من روعة هندستها وجمال علوها وشموخ أعمدتها فهى متلألئة تشع بياضا، إنه وصف جمالى لذلك المكان الذى أسهم وبشكل واضح فى نضوج هذا الفن الوصفى وتطوره.

وهذا ابن هذيل يصف لنا مبانى الزهراء[1]، ويضفى عليها بعض صفات الكائن الحى محاولا إبراز القيمة الجمالية لذلك المكان فيصف أقواسها بأجنحة الطير ويلجأ إلى استخدام أداة التشبيه كأن بشكل تكرارى، محاولا بواسطة هذه الأداة إضفاء تشبيهات جميلة، فالنخيل الباسقات الشامخات إلى العلا شبيهة بالعذارى، أما جنى الورد فيها فأشبه بلقاء عشيقين أظهرا الخجل، إنه ((يبث الحياة فى جماداتها ويستعير عناصر المكان من الطبيعة الإنسانية))[2] حيث يقول:

كـأنَّ حَـنَاياهَا جَـناحَا مُـصفِّقٍ ... إذا ألهبتهُ الشمسُ أرخاهُمَا نَشْرَا
كـأنَّ سواريها شكت فترة الضَّنى ... فَبَاتتْ هضيماتٍ الحشا نُحَّلاً صُفْرا
كـأنَّ الذى زانَ البياض نُحورُهَا ... يُعذِّبها هجرا ويقطعُها كبَرا
كـأنَّ النخيلَ الباسقاتِ إلى العلا ... عذارى حجال رجلت لمَّا شقرا
كأن الغصون الآسى والريح بينها ... مُتونُ نشاوى كُلَّما اضطربت سُكرَا
كـأنَّ جنىَّ الجُلنَّارِ ووردهُ ... عشيقانِ لَّما استجمّعَا أظهَرا خَفْرا[3]

فقد استطاع ابن هذيل فى هذه الأبيات أن ينمى ويطور لنا الإحساس المرهف بتلك القصور، ويكشف لنا من خلال هذا الوصف عن جمالية تلك القصور والحق

---

(١) الزهراء وهى المدينة التى شيدها عبد الرحمن الناصر غربى قرطبة فى سفح جبل سنة (٣٢٥ هـ)وأنفق عليها الأموال الطائلة ووصفها كثير من الشعراء بجمالها وفخامة عمرانها ودقة تصميمها.ينظر: البيان المغرب، ٢/ ٢٣١، المغرب، ١/ ١٧٩،قصر الزهراء فى الأندلس، نجله إسماعيل العزى، بغداد، ١٩٧٧، ٢٨-٣٢.

(٢) شعر يحيى بن هذيل القرطبى ، ٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ٨٤.

أن كل ما قيل فى الزهراء فهو قليل بشأنها فقد ((كانت الزهراء درة فريدة فى قرطبة وكانت قرطبة جوهرة العالم))[١].

وإلى هذا الوصف يذهب عبد السلام[٢] واصفا مبانى الزاهرة[٣] بقوله:

كأنمـــا الوحـــى يأتـــيه بأرسمهـــا ... مـن الجـنان فـلا يعـدو الـذى أمـرَهْ
كأنمـــا عُمـــدُ الأبهـــاءِ إذا بـــرَزتْ ... سـوقٌ تـبدَّتْ مـن الأنـوار مُنحَسِرهْ
كأنمـــا طـــررَ الإقـــياءِ ماثلـــةً ... غيدٌ لـوَى الحسنُ فى لبَّاتها طرَرهْ[٤]

فالشاعر هنا جنح إلى المبالغة وبشكل لافت للنظر عندما جعل رسمها من صنع الوحى يأتى به من الجنان وليس من صنع الإنسان محاولا إضفاء أجمل الصفات على هذا المكان ويغلب على هذه الأبيات سهولة الألفاظ ووضوح المعانى.

إن هذا الإغراق فى الوصف المكانى ما هو الانعكاس للازدهار الثقافى والاقتصادى والاجتماعى الذى شهدته بلاد الأندلس فى تلك المرحلة، فهو فن أصيل من الفنون التى ابتكرها شعراء الأندلس وطبعوها بأفكارهم[٥].

فقد تطور الذوق العربى بتطور الحياة، وأخذ الناس بأسباب الحضارة، فرقت مشاعرهم، وأخذت أحاسيسهم بالصفاء تجاه تلك الأمكنة، فليس من العجب أن يتألق وصف الزهراء والزاهرة فى تلك المرحلة إذ ((إن العمارة فى مبانى قرطبة والزاهرة والزهراء اتصلت إلى أن كان يمشى فيها بضوء السرج المتصلة عشرة أميال))[٦].

---

(١) تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى، ٢١٥.

(٢) عبد السلام: يذهب الدكتور إحسان عباس بأنه على الأرجح هو عبد السلام بن عبدالله بن زياد اللخمى القرطبى أبو عبد الملك (ت: ٣٧١هـ)، ينظر: ملحق التشبيهات، ٣١٣.

(٣) الزاهرة وهى المدينة التى بناها المنصور ابن أبى عامر بناها سنة (٣٦٨هـ) وأقامها على نهر قرطبة واستغرق بناؤها عامين وبجانبها المنية العامرية، ينظر: نفح الطيب، ١/ ٥٧٨.

(٤) التشبيهات، ٦٩.

(٥) ينظر: دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى، ٦٥.

(٦) فضائل الأندلس وأهلها، لابن حزم، وابن سعيد الشقندى (ت: ٦٢٩هـ)، نشر: الدكتور صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨م، ٥٥.

ويصف لنا محمد بن الحسين الطارئ قصر البهو مشيدا أيضاً بروعة هندسته وجمال أعمدته ولجأ بعض الشيء إلى المبالغة، القصد منها إظهار الفاعلية المعنوية والنفسية للمكان فهو يصف ذلك المكان ويمعن النظر فيه متأملا بكل جوانبه، هذا التأمل يهيء له انفتاح المخيلة الشعرية فلنستمع لقوله:

عُقـــدَت أهلّـــةُ بهـــوه فكأنهـــا ... عُقَـدُ الـشُّنوفِ على خـدودِ الخـرَّد

مـــن تحـتها عمـــدٌ كـــأنَّ فـريدها ... مـــن جوهـــرٍ ولآلـــئٍ وزبـــرجد

تحكـــى الحـــسانَ قـــدودها لكـــنها ... فـــى خلقهـــا ليـــست بـــذاتِ تـــأوُّد

وكأنمـــا قـــضبانهُ اللاتـــى سمـــتْ ... تبغـــى مـــناجاةَ الـــنجوم الـــوقّد[1]

هذه الألفاظ التى استمدها الطارئ ليست مصطنعة وإنما هى مستمدة من واقع تلك القصور فيصف أعمدتها وكأنها من جوهر وزبرجد وهذه الأوصاف كثيراً ما لجأ إليها شعراء الأندلس، ويضفى عليه أيضاً صفات السمو والشموخ التى قرنها الشاعر بالنجوم العالية الملتهبة بنورها.

فكان لتلك القصور صدى كبير فى شاعرية ونفسية المبدع، وهذا الصدى أنتج لنا شعراً يفيض عذوبة وجمالاً، فهذا ابن شخيص يصف لنا تلك المبانى بأسلوب شعرى منمق وجميل حيث يقول:

هـذى مبانـى أمـير المؤمـنينَ غـدت ... يُـزرى بهـا آخـرُ الدنـيا علـى الأولِ

كذا الدرارى وَجَدنا الشمسَ أعظمَها ... قدراً وإن قصُرت فى العلوِ عن زُحلِ

لقـد جـلا مـصنعُ الزهـراءِ عـن أثـرٍ ... مُـوحدِ القـدر عـن مِـثلٍ وعـن مـثلِ

فأتـــت محاسُـــنها مجهـــودَ واصِـــفها ... فالقـولُ كالسكتِ والإيجازُ كالخطلِ

بـل فضلُها فى مبانى الأرض أجمَعِهَا ... كفـضلِ دولـةِ بانـيها علـى الـدولِ[2]

---

(١) التشبيهات، ٧١.

(٢) شعر ابن شخيص، ٧٩-٨٠، يزري: يعيب ويحقر ويهون، الخطل: القول الفاسد المضطرب.

فقد صور لنا ابن شخيص هذه المبانى بأسلوب جميل فقد جعل منها درة فريدة يعيب بها كل ما قام قبلها، ويقرن علوها بكواكب السماء وحسنها يفوت جهد كل واصف مهما قيل فيها.

ثم يلجأ بعد هذا إلى أسلوب سردى تفصيلى لكل أجزاء ذلك المكان المتمثلة بالأقواس والحوض وغيرها حين قال:

كادت قِسى الحنايا أن تُضارِعَها ... أهلةُ السعدِ لولا وصمةُ الأفلِ
تألقّت فقدا نقصانُها كملاً ... وربما تنقصُ الأشياء بالكملِ
أو فى سَنَاها على أعلى مفارقِها ... من لؤلؤٍ حالياتِ الحلقِ بالعطلِ
كم عاشقين من الأطيارِ ما فتئا ... فيها يرودانِ من روض إلى غَللِ
إذا تهادى حبابُ الحوض حثَّهما ... على التنقُّل من نهلٍ إلى علللِ
كأنما أُفرغَتْ ألواحُ مرمرِه ... من ماء عصراءَ لم يجمُد ولم يسلِ[1]

فتلك الأقواس كادت تضارع وترتقى إلى أهلة السعد لولا الغروب، فنقصانها كمال لها، حتى الأطيار تعشق ذلك المكان فترده مرة وتحفى نفسها مرة أخرى وكأن ألواح المرمر من ماء صاف مستقر لم يجمد ولم يتحرك فهو ما بين الاثنين.

فأصبح وصف المكان الحضرى عنصرا له دلالة خاصة واكتسب قيمة جمالية من خلال كشفه عن حياة الشخصية فهو كما أشرنا فى صفحات سابقة انعكاس لشخصية الشاعر الذى عاش وترعرع فى تلك الأماكن،فذهب يتغنى بها وبجمالها، ونلمس هذا الأثر فى شعره، فوقف متأملا فيها وفى مجالسها ورياضها الزاهية حين قال:

فها مجالسُ مثلُ الحورِ قد فُرِشت ... فيها الرياضُ ولم يحْلَلْ بها مطرُ

(١) شعر ابن شخيص الأندلسى، ٨٠، العطل: تجرد المرأة من الزينة، النهل: أول الشرب وثانيها العلل.

إلى سطوحٍ ترى أفريزها شِرِقاً ... مثل المرائى يُرى فى مائها الصُّورُ

كأنما خفرت من طول ما لحظت ... فقد تعدى إلى أبهائها الخفرُ

وقبة ما لها فى حُسْنِهَا ثمن ... لو أنه فيها العز والعمرُ

كأنما فرشت بالورد متصلا ... فى الفرش فاتخذت منه لها أزرُ

كأنما ذعرت من خوف سقطتها ... فى بحرها فبدا فى لونها الذعرُ

بَحْرٌتفجّر من ليثينِ ملتطمٌ ... يا من رأى البحرَ من ليثين ينفجرُ[1]

فى هذه الأبيات يصف لنا الشاعر جمال مجالس تلك القصور ورياضها الزاهية وسطوحها البراقة الشبيهة بالمرآة، إذ يرى الإنسان فيها ذاته، أما قبتها فلا تثمن سوى بالعز، وكأنها مفروشة بالورد، وقد جسدت دلالة السيادة والعز.

إن الوصف الذى نسجه لنا شعراء الأندلس فى تلك الحقبة هو ليس من صنع الخيال الوهمى بل هو وصف لحقيقة الواقع فقد عاشوا فى تلك الأماكن وعاصروا عزها وشموخها فكان من الجدير بالوفاء أن يصفوا تلك المبانى بأجمل الأوصاف. ومن الذين استوقفتهم تلك الأماكن ابن دراج القسطلى (ت: ٤٢١هـ) عندما وصف دار السرور وجعلها فوق النجوم، ووجد طيب الحياة وروحها من أنفاس هوائها أما الأعمدة التى قامت عليها فهى فريدة من نوعها إنها ((من الرخام المجزع المعرق بلونيه الرمادى المائل إلى الزرقة والوردى المجزع بلون أبيض))[2] أما السرور فقد اتخذ من تلك الأماكن دار الإقامة فلنستمع لقوله:

دارُ السرور المعتلى شُرفاتُها ... فوقَ النجُّوم الزُّهر فى استعلائِها

وكأنَّ غرَّ المُزنِ لما جادَهَا ... نشرَتْ عليها من نفيسِ مُلائِها

---

(١) شعر الرمادى، ٧٠.

(٢)قصر الزهراء فى الأندلس، ١٢٧.

وكأنّما أيدى السّعود تَضمَّنت ... إبّداعها فَبنَتْ على أهوائها

وكأن ريحان الحياة وروحها ... مستنشقٌ مِنْ نافحات هوائها

فكأنما اصطفُيتْ طلاقُة بشرها ... من أوجُهِ الأحبابِ يوم لقائِها

قامتْ على عُمدِ الرّخامِ كمثل ما ... نُسقت نجومُ النظمِ فى جوزائِها

بمقَابلٍ من مُلتَقى أرواحها ... ومشَاكةٍ من سفلها وعلائِها

ككتيبتى رجلٍ وركبٍ وافقت ... يومَ الوغى مِثلَين من أكفائِها

وكأنما اختارَ السرورُ مكانها ... وطناً فحلَّ مُخيِّماً بِفنائِها[1]

وهكذا وجد شعراء الأندلس فى تلك الأماكن جمالاً وروعة ودقة تصميم وألفة ونعيم،فتعانق معها وأفرغ فيها مشاعر الحب وألهمته شعر التغنى وأشعاراً تفيض عذوبة وجمالا، صورت جزء من تلك الأماكن الحضرية التى خلدها التاريخ.

(١) التشبيهات، ٦٧-٦٨.لم ترد هذه القصيدة فى ديوانه.

المبحث الرابع
المكان وأغراض أخرى

(١) المكان والرثاء

الرثاء تعبير عن خلجات قلب حزين تجد فيه لوعة صادقة ومشاعر جياشة بالعواطف، إنه البكاء على كل شيء مفقود وعزيز على الإنسان سواء أكان مكانا أو إنساناً.

والرثاء غرض شعرى قديم النشأة لجأ إليه الشعراء للتعبير عما يختلج فى صدورهم من حزن ولوعة وتفجع، ومما لا شك فيه أن أصدق الرثاء ما كان صادراً من القلب، وما كانت الفجيعة فيه مؤلمة شديدة،وليس أشد من فجيعة ضياع المكان لا سيما إذا كان مكان الألفة.

فقد كان شعر الرثاء فى الأندلس ((متابعا الأحداث ملاحقا المصائب مرافقا الكوارث، ومن ثم فقد كانت مسيرة هذا الشعر الحزين مسيرة تاريخية يسجل كل حادثة فى زمانها وبكى كل كارثة فى وقتها))[١] فامتاز شعر الرثاء فى الأندلس بميزة هى ((الإكثار من التفجع والتهويل والأحزان))[٢] فجاء رثاء الشاعر الأندلسى لتلك الربوع والديار والمدن التى أصابها الدمار والخراب وأنتج لنا شعرًا يكاد ينفرد به فقد طبع هذا اللون من الشعر بطابع أندلسى خاص فعد أبرز معالم الشخصية الأندلسية وتفوق على شعر الرثاء بصورة عامة))[٣].

---

(١) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه، ٥١٢.

(٢) اتجاهات الشعر الأندلسى إلى نهايات القرن الثالث الهجرى، ١٧٥.

(٣) الأدب الأندلسى من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧ هـ)، تأليف: الدكتور منجد مصطفى بهجت، نشر: دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨م، ٣٠٤.

فظلت تلك الديار والأماكن شاهدا حسيا على متغيرات تلك الحياة الإنسانية التى أصابها الدمار، وحل بها الخراب وذهب سكانها الأبرياء فجاء رثاء تلك الأماكن تعبيرا عن خلجات نفس رأت بأم عينها تلك المآسى، فجاءت هذه الأشعار متصفة بصدق العاطفة وعمق التأثير وغزارة الدموع لكونها صادرة من نفس مسها الحزن والأسى.

والحق أن تلك الأماكن ظلت راسخة فى الأذهان ولها ((حس أصيل وعميق فى الوجدان البشرى وخصوصاً إذا كان المكان وطن الألفة...ويزداد هذا الحس شحذا إذا ما تعرض المكان للفقد والضياع))[1] فظل رثاء تلك الأماكن تعبيرا عن تلك العواطف الصادقة المتفجعة بالأسى، إنها أماكن الذكريات التى عانى فيها الإنسان وأجهد نفسه فى تكوينها وتآلف معها فهى ((جزء من تكوين الإنسان لذلك بقى المكان لصيقا بالتاريخ وبالحضارة وشاهداً حسيا على التطور والتغير وسجلاً أمينا لأفعالنا وأفعال من سبقونا))[2].

ومن هذا المنطلق يمثل المكان مستودعا لهذه الذكريات ويظل يوحى للإنسان بالفعل المبدع ويمده بالشحنات النفسية والوجدانية ويؤجج المشاعر فى قول الشعر لعله يعيد له شيئاً من التوازن بعد ذلك الفقدان، فجاء رثاء تلك الأماكن بصوت مؤلم بعد أن استوقفتهم تلك الأماكن ناظرين إليها متأملين فيها بعدما ((ذابت بين حناياها أعز الأيام واندثرت عند نؤيها وأحجارها أحلى ذكريات الصبا وأيام الشباب))[3] فهذا عباس بن فرناس يرثى طليطلة عندما أصابها الدمار أيام الأمير محمد لما اشتد على أهلها فغزاهم واحتال فى هدمها حين قال:

أضحت طليطلة معطّلةً ... من أهلها فى قبضةِ الصقرِ

تُركَتْ بلا أهلٍ تؤهّلها ... مهجورة الأكنافِ كالقبرِ

---

(١) جماليات المكان، اعتدال عثمان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م، ٥١.

(٢) إشكالية المكان فى النص الأدبى، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٦م، ١٥٩.

(٣) وحدة الموضوع فى القصيدة الجاهلية، ٩.

مـــا كـــان يُبقـــى الله قنطـــرةً أضـحت سـبيلَ كـتائب الكفـرِ[1]

أما عبد الله بن محمد[2] فيصف لنا آثار تلك الديار بأسلوب شعرى شجى ومؤثر حيث يقول:

ديـارٌ علـيها مـن بـشاشة أَهلـها بقايـا تـسرُ الـنفس أنـساً ومنظـرُا
رُبـوع كـساها المُـزنّ مـن خلـع الحَيَا بُـروداً وحَلاّهـا مـن الـنَّور جوهـرًا
تُـسرك طـوراً ثـم تـشجيك تـارة فترتـاح تأنيـساً وتَـشْجَى تذكُـرًا[3]

إنه يعبر عن خلجات روحه القلقة الملتاعة بذهاب تلك الديار فيجد فيها تارة سروره وتارة أخرى تثير شجونه.

ويطالعنا ابن هانئ بأبيات شعرية من قصيدة مديح للمعز لدين الله مطالبا المسلمين بالنظر إلى تلك الديار التى أخذت تهوى فى يد الروم أيام قوتهم وضعف دولة المعز فأثارت مشاعر ابن هانئ تلك الظروف ودفعت به إلى الرثاء المفجع المؤثر حينا واليأس حينا آخر محاولاً فى رثائه لتلك الأماكن استنهاض الهمم واستثارة النفوس حيث قال:

يـا وَيلكـم أَفمـا لكـم مـن صـارخٍ إلاّ بثغـرٍ ضـاعَ أو ديـنٍ عَفـا
فمديـنةٌ مـن بعـد أُخـرى تُـستبى وطـريقةٌ مـن بعـد أُخـرى تُقتَفـى
حتـى لقـد رجَفَـتْ ديـارُ ربـيعةٍ وتزلـزلت أرضُ العـراقِ تخـوُّفا
والـشام قـد أودى وأودى أهلَـه إلاّ قلـيلاً والحجـازُ علـى شَـفا
فعجـبتُ مـن أن تمـيدَ الأرضُ مـن أقطارِهـا وعجـبتُ أن لا تُخـسَفا

---

(١) ما وصل إلينا من شعر عباس بن فرناس، ١٥٩.
(٢) عبد الله بن محمد: هو أبو الصخر أديب وشاعر ذكره أحمد بن فرج الجيانى صاحب كتاب الحدائق (ت: ٣٦٠هـ). ينظر: بغية الملتمس، ٢/ ٤٣٢.
(٣) بغية الملتمس، ٢/ ٤٣٢.

أيسرُّ قوماً أنَّ مكّةَ غُودِرَتْ بمجرٍّ جيش الرُّوم قاعاً صَفصَفا
أو أنَّ ملحود النبى ورَمسَه بمدارجِ الأقدامِ يُنسَفُ مَنْسَفا
فتربّصُوا فالله منُجزُ وعدِهِ قد آنَ للظلّماءِ أن تتكشَّفا[1]

إنها صرخة استنهاض للهمم بعد أن رأى توسع الروم فى مختلف البلاد فيحاول إيقاظ العرب من نومهم، فالشام قد وقعت بأيديهم والحجاز على طريق الهلك أما مكة والمدينة فهى فى طريق الخطر، ثم يلجأ إلى الله منجز وعده وهازم الأحزاب وحده.

وأكثر ما أثار الشجون وهز النفوس هى قصور بنى أمية التى أصابها الدمار والخراب بعد أن نالت من ترف وشموخ وعز ما لا يضاهيها مكان آخر، فقد فجرت الحزن والأسى فى قلوب الشعراء فأنشدوا فيها العديد من قصائد الرثاء فهذا غالب بن أمية[2] يرثى قصور بنى أمية عندما جلس على نهر قرطبة وأصرف العنان إليها فأثارت الشجون وحركت مكامن نفسه وأخذ يقول:

يا قصركم قد ألفت من ملك دارت عليهم دوائر الفلك
يا قصركم قد حويت من نعم دارت لقى فى عوارض السكك
أنف بما شئت كل متخذ يعود يوما لحال مترك
أين ملوك الشام عدهم فكل قصر لهم بلا ملك
وقل لدنيا إليك مقبلة تختال فى خزها وفى الفنك[3]

فهو يرثى ذلك القصر الذى تقوض بناؤه وأصبح خاليا من الملوك فيرى أن على

(١) ديوان ابن هانئ، ٩٠-٩١.
(٢) غالب بن أمية بن غالب الموزورى، ٣٨٩هـ يكنى بأبى العاص، وسكن قرطبة، أديب شاعر. ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٥١٦؛ بغية الملتمس، ٢/ ٥٧٦.
(٣) جذوة المقتبس، ٢/ ١١٦، بغية المتلمس، ٢/ ٥٧٦.

الإنسان أن لا يغتر بمتاع الحياة الدنيا وزخرفها فما هو إلا سراب خادع سرعان ما يزول، إنه شعور حزين لا يمكن أن يدركه شخص عادى، لأن هذا الشعور لا يدركه إلا الشعراء.

إن التركيز على تلك الأماكن فى الشعر يعطيه عمقا وغزارة وخصوبة انتمائية وطنية توسع فى دائرة الانتماء فى نفس الإنسان وتقوى من أبنية الوعى الانتمائى لديه وتشحذ فى داخله مشاعر الحس القومى[1].

أما قرطبة فـ ((قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها وآثارهم بها ظاهرة))[2] فقد ضاعت هى الآخرة وأصابها الخراب والدمار فرثاها الشعراء بقصائد تنفطر لها القلوب كيف لا وهى عاصمة الخلافة وجنة الأندلس الفيحاء، فبدأ الشعراء ينظمون القصائد والمرثيات وكانوا ما بين حزين متألم ويائس قانط ومنتظر متأمل ويبكيها أحيانا ويتفجع عليها أحياناً أخر.

فسجل الشعر ما أصاب ذلك المكان من خراب ودمار وأكثر الشعراء من التوجع والأسى والألم وحملوا الزعامات الهزيلة مسؤولية ما حل لقرطبة فهذا ابن عصفور الحضرمى[3] يقول:

أضعتمُ الحزم فى تدبير أمركمُ ... ستعلمون مَعا عُقبى البوار غَدَا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكمُ ... بكيتمُ بدم أن دمتمُ بَددَا
لا كن سَبل العَمى أعمتْ بصائركم ... فألبستكم ثيابا للبلى جدُدَا
يا أَمة هتَكتْ مستورَ سوءتها ... ما كلَّ من ذلَّ أعطى بالصَّغار يدَا
فى سورة الحشرَ آياتُ مفصلة ... فى شأنكم أُنزلتْ لم تعدُكم أحَدَا

---

(١) ينظر: جماليات المكان فى شعر عرار، ١٩١.

(٢) الروض المعطار، تحقيق: لفى بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٣٧، ٤١.

(٣) هو أحمد بن عمر بن عبدالله الحضرمى الخطيب بجامع إشبيلية يكنى بأبى القاسم من أهل العلم والأدب وله أشعار فى رثاء قرطبة (ت: ٤١٠هـ). ينظر: الحلة، ١/ ٦٤.٠

فاستشعروا سوءَ عُقباكم فقد شَمِلتَ جمـيُعكم محـنةُ لا تنقـضى أبـدُا[1]

فبكى شعراء الأندلس مدينتهم الغالية ((موطن أولى العلم والنهى ..وينبوع تفجر العلوم وقبة الإسلام وحضرة الأنام ودار صوب القلوب))[2] فهذا ابن دراج يرثى الحواضر الأندلسية وبأسلوب شجى ومؤثر محاولا أن يثير النفوس ويحرك الكوامن ويستنهض الهمم ويصف لنا كيف أصابها الحزن بعد السرور والجلاء، والنقمة بعد النعيم ومن ليل قصير إلى ليل طويل محاولا نقل تلك المأساة المؤلمة والصراعات المدمرة إلى على بن حمود[3] الذى امتدحه فى هذه القصيدة فلنستمع لقوله:

ومـــن دونِـــنا أنـــساتُ الـــدّيار نهـابَ الحِمـى موحـشاتِ الطُّلُـولِ
يهـــيجُ فِـــيها زفـــير الـــرياح مدامـعَ شـجوِ الـسَّحاب المخـيلِ
وتلطِـــمُ فـــيها أكـــفُّ الـــبروقِ خـــدودَ عـــراصٍ عَلَيـــنا ثكـــولِ
تظلّـــمُ مـــن هـــاطِلاتِ الغمـــامِ وتـشكُو مـن الـريح جرَّ الذيـولِ
مغانـــى الـــسرورِ لبـــسنَ الحـــدادَ علـــى لابـــساتِ ثـيابِ الذهـولِ
خطيـباتِ خطـبِ الـنَّوى والمهـور مهـارى علـيها رحـال الـرحيلِ
فمـــن حـــرةٍ جلـــيت بـــالجلاءِ وعـــذراء نـــصّتْ بـنص الذميـلِ
ولا حلـــى إلا جُمـــانُ الدمـــوع يـسيلُ علـى كـل خـدٍ أسـيلِ
فـبذلنَ مـن بعـدِ خَفـضِ النعـيم بـشق الحـزونِ وَوَعـثِ الـسهولِ

(١) البيان المغرب، ٣/ ١١٠.
(٢) نفح الطيب، ٢/ ٩.
(٣) هو على بن حمود بويع بباب السدة من قصر قرطبة ثانى اليوم الذى أخذ بثأر هشام المؤيد، لقب بالناصر لدين الله وهو مفتوح الباب يقيم الحدود. ينظر: البيان المغرب، ٣/ ١٢٢.١

ومـن قِـصَرِ اللـيل تحـت الحجـالِ بهـولِ الـسّرى تحـت لـيلٍ طـويلِ[1]

فهو يبكى ويتأسف على ما أصاب تلك الحواضر والمدن من دمار وما فعلت بها أيدى الزمان وهذا الشعر مرده إلى ولوع النفس بتلك الديار وتذكر أحبابها.

أما ابن شهيد ((شيخ الحضرة العظمى وفتاها ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها، وينبوع آياتها ومادة حياتها)) [2] هو الآخر يبكى قرطبة ذلك المكان الذى ضمه بين حناياه فألهمه العلم والدراية فيبكيها بكاء موجعًا ومؤثرًا وبنغمة حزن وأسى حيث قال:

مـا فـى الطُّلُـولِ مـن الأحـبَّةِ مخـبرُ فمـن الّـذى عـن حالِهـا نَـسْتَخْبِرُ

لا تَـسألنَّ سـوى الفـراقِ فإنَّـهُ يُنبـيكَ عـنهم أنجـدُوا أم أغْـورُوا

جـارَ الـزَّمانُ علـيهمُ فتفـرَّقُوا فـى كـلِّ ناحـيةٍ وبـادَ الأكثـرُ

جَرَتِ الخطوبُ على محلِّ ديارهِم وعلـيهمُ فَتغَيَّـرت وتَغَيّـرُوا

فـدعِ الـزَّمان يـصوغُ فـى عرصـاتِهم نُـورًا تكـادُ لـه القلـوبُ تـنُوِّرُ

فلمـثلِ قـرطبةٍ يقـلُّ بكـاءُ مـن يبكـى بعـينٍ دمعُهـا مَتفجِّـرُ

دارٌ أقـالَ اللهُ عثـرةَ أهلِهَـا فَتَبربـرُوا وتَغـرَّبوا وتَمَـصّرُوا

فـى كـلِّ ناحـيةٍ فـريقٌ مـنهمُ مُتفطِّـرٌ لفـراقِها مُتحيِّـرُ[3]

فهو يسأل عن حال قرطبة فما وجد فيها إلا الفراق، ولعب الزمان بها فرأى أن البكاء لا يحق إلا لقرطبة تلك الدار التى تفرق أهلها وأصبحوا فى كل ناحية وصوب.

---

(١) ديوان ابن دراج، ٧٨.

(٢) الذخيرة، ١/ ١٩١.

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسى، ١٠٩-١١٠.

إن الأندلس قد أصابها خطب عظيم فقد محيت رسومها وطمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرها البلى فصارت صحارى مجدبة بعد العمران وفيافى موحشة بعد الأنس، لقد ا زداد ابن شهيد أسفا على قرطبة وما آلت إليه حالها فتعود به الذاكرة إلى الوراء متذكرا أماكنها المؤلفة التى قضى فيها أجمل الأيام فيذكر ساحاتها الواسعة وأنهارها العذبة ورياضها الزاهية وغيرها من الأماكن فألهبته العواطف وقذفت به فى بحار هواها فراح يقول:

يـا جـنه عَـصَفَتْ بهـا وبأَهلِـها ... ريـحُ الـنَّوى فتدمَّـرت وتَدَمَّـرُوا

آسـى علـيك مـن الممـاتِ وحـقَّ لى ... إذا لم نـزل بـكِ فـى حياتكِ نفخـرُ

كانـت عراصُـك للمُـيمِّمِ مكـة ... يـأوى إِلـيها الخائِفـونَ فيُنْـصرُوا

يـا منـزلاً نـزلتْ بـه وبأهلِـهِ ... طـيرُ الـنَّوى فَتَغَيَّـروا وتَنَكَّـرُوا

جـادَ الفـراتُ بـساحتيك ودِجلـةٌ ... والنـيلُ جـادَ بهـا وجـادَ الكوثـرُ

وسُـقيتِ مـن مـاءِ الحـياةِ غمامـةً ... تحـيا بهـا مـنكِ الـرياضُ وتُزْهِـرُ

أسَـفِى علـى دارٍ عهـدتُ ربـوعَها ... وظـبـاؤُها بفـنـائِها تَتَـبخْترُ

أيـامَ كانـت عـينُ كُـلِّ كـرامةٍ ... مـن كُـل ناحـيةٍ إلـيها تنظـرُ

أيـام كـان الأمـرُ فـيها واحـدًا ... لأَمِيرهـا وأمـيرِ مـن يتَأَمَّـرُ

أيـامَ كانـت كـفُّ كـل سـلامةٍ ... تـسموا إلـيها بالـسلامِ وتـبدرُ

حزنـى علـى سـرواتِها ورواتِهـا ... وثِقاتِهـا وحُماتِهـا يَتَكـرَّرُ

نفـسى علـى آلائِهـا وصـفائِها ... وَبهائِهـا وسَـنائِها تَتَحـسَّرُ

كَـمِدى علـى عُلمائِهـا حُلَمائِهـا ... أُدبائِهـا ظُـرفائها تَتَفَطَّـرُ[1]

---

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسى، ١١٠-١١١.

فقد استطاع ابن شهيد أن يرسم لنا صورة قرطبة الحزينة بعد أن كانت جنة الدنيا فعصفت بها وبأهلها ريح النوى فيأسى عليها بعد أن كانت ساحتها للميم مكة يؤوى إليها كل خائف ويأسف عليها مرة أخرى عندما يذكر ظباءها وهى تتمايل وتتبختر بساحاتها، وأيام كانت كل عين ناظرة إليها فهو حزين عليها وعلى علمائها ورواتها وأدبائها وبقلب متفطر كثير الأسى والحزن.

لقد استطاع الشاعر الأندلسى أن يرثى تلك الأماكن والديار بأسلوب شعرى حزين فتفرد إليه الأمر وجاد القول حتى ألم بأروع قصائد الرثاء المتمثلة بحزن عميق وألم وفراق، وجسدوا فى قصائدهم صدق العواطف ورهافة الإحساس وبلوغ المراد والإجادة فى الصواب.

٢ـ المكان والفخر

إن للمكان دورا فاعلا فى تحفيز الشعراء على التفاخر، بما أن الفخر هو التغنى بالفضائل والمثل العليا والزهو بالفعال الطيبة فقد أجاء شعراء الأندلس بذلك.

وأول مَنْ يطالعنا من شعراء هذه الحقبة هو عبد الله بن الشمر[١] (ت:٢٣٥هـ) الذى أشاد بجامع قرطبة مفتخراً به بعد أن بناه عبد الرحمن الداخل فقال:

بنى مسجداً لم يُبنَ للهِ مثلهُ ... وهل مثلهُ فى قبضةِ اللهِ مسجدُ

سوى مُبتنى الرحمن والمسجدُ الذى ... بناهُ نبى المسلمينَ محمدُ

له عمدٌ خضرٌ وحمرٌ كأنّما ... تلوحُ يواقيتٌ بها وَزَبَرجدُ[٢]

إنه المسجد الذى لم يبن مثله سوى مبنى الرحمن ومسجد الرسول محمد صلى الله

---

(١) هو عبد الله بن الشمر بن نمير كنيته أبو محمد (ت: ٢٣٥هـ). ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ١/ ٣٩٤، جذوة المقتبس، ١/ ٣٧١.

(٢) عبد الله بن الشمر شاعر أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ونديمه، د.حياة قارة، مجلة الذخائر، ع ٥، السنة الثانية، ٢٠٠١م، ١٢٥.

عليه وسلم فهو يفتخر بذلك المسجد وبأعمدته التى تلوح وتظهر لنا كأنها ياقوت وزبرجد.

ويطالعنا العتبي[1] بأبيات جميلة مفتخرا بها بنصر الأمير محمد فى معركة وادى سليط وهى من أمهات الوقائع فقال:

سائل عن الثغرِ الصَّوارمَ تصدُقِ ... واستَنْطقِ السُّمرَ العوالى تَنْطِقُ

تَركتْ وقائعَ فى الثغورِ وقد غَدَتْ ... مثلاً بكلّ مغربٍ ومُشرَقِ

وأداخَ أرضَ المشركينَ بوقعةٍ ... تركتُهم مثلَ الإشاءِ المحرقِ

جَادتْ عَليهمْ حَربُهُ بصواعقٍ ... تركتُهم مِثلَ الرمادِ الأزرقِ[2]

هذه الأبيات امتدح فيها الأمير محمداً مفتخراً بما حققه من انتصارات فى وادى سليط، ومحاولا إيقاع صورة حوارية من خلال قوله (سائل عن الثغر) أى سائل عن هذا البطل ذلك المكان، بأنه ترك فى تلك الثغور مثلا لكل من فى الشرق والغرب.

وعلى ما يبدو أن أكثر شيء افتخر به الأندلسيون هو البناء فحتى الأمراء كانوا يتفاخرون به فهذا عبد الرحمن الناصر يفتخر بما قام به من بناء وما شيد من عمران حيث يقول:

هِمَمُ الملوك إذا أرادوا ذِكْرهَا ... من بَعدهَم فبألسُن البُنيانِ

أوَ ما ترى الهرمين قد بقيَا وكم ... ملكٍ مَحاهُ حوادث الأزمانِ

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن عتبة الأندلسى يعرف بالعتبى، منسوب إلى عتبة بن أبى سفيان ، رحل إلى المشرق، و ألف كتابا فى الفقه، ينظر: بغية الملتمس، ١/ ٧٠، المغرب، ١/ ١٣٤.

(٢) البيان المغرب، ٢/ ١١٢

إنَّ البـــناءَ إذا تعـــاظَمَ شـــأنُهُ أضـحَى يـدلُّ علـى عظـيم الـشانِ[1]

فهو يحاول من خلال هذه الأبيات أن يقيم شيئا يخلد له التاريخ مستمدا هذه النظرة من خلال ما تركه الفراعنة من أهرام شاخصة فى مصر، وهذا دليل على عظمة شأن الملوك.

وممن أشاد ببناء عبد الرحمن الناصر هو وزيره عبيد الله بن إدريس[2] (ت:٣٥٢ هـ) حيث يقول:

سيـشهد مـا شَـيَّدتَ أنَـك لم تكـنْ مُـضيعًا وقـد مكَّـنت للـدين والدنـيا
فـبالجامع المعمـور للعلـم والتُّقـى وبالزَّهـرةِ الزهـراء للملـكِ والعَلْـيَا[3]

فالجامع المعمور والزهرة والزهراء هى خير شاهد على ما شيدته من صروح الحضارة الأندلسية.

أما أبو المطرف بن أبى الحباب[4] فقد قال أبياتا مفتخرا فيها بالمنية العامرية وهى المدينة التى أسسها المنصور محمد بن أبى عامر فى سنة ٣٦٩هـ وتقع إلى جانب مدينة الزهراء[5] وهذه الأبيات قالها عندما وقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ثنتان منها قد تفتحتا وواحدة لم تفتح بعد فقال.

لا يـومَ كالـيوم فـى أيامنـنا الأولِ فالعامـــرية ذات المـــاء والظُّلـــلِ

---

(١) المغرب فى حلى المغرب، ١/ ١٧٩-١٨٠.

(٢) عبيد الله بن إدريس كنيته أبو عثمان من أهل قرطبة كان مفتنًا فى ضروب العلم وكان الشعر أشهر أدواته، وكان عالما متواضعا (ت:٣٥٢ هـ)، ينظر: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضى، ١/ ٤٣٠.

(٣) المغرب فى حلى المغرب، ١/ ١٨٠

(٤) هو أبو المطرف بن أبى الحباب كان أديبا شاعرا فى أيام المنصور بن أبى عامر، ينظر: جذوة المقتبس، ٢/ ٦٣٦، بغية الملتمس، ٢/ ٧٠٨.

(٥) ينظر : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م، ١/ ٢١٣.

ما أن يُبالى الذى يحتلُّ ساحَتَها ... بالسعد ألا تحلّ الشمس فى الحَمَلِ

كأنّما غُرستْ فى ساعة وبدا الـ ... سوسانُ من حينهِ فيها عَجَلِ

أبدت ثلاثاً من السوسان مائلةً ... أعناقَهنَّ من الإعياءِ والكَسَلِ

كأنّها راحَة ضمت أناملَها ... من بعد ما ملئت جودك الحَضِلِ[1]

أما قرطبة فهى قبة الإسلام ذاع لها من الصيت والشهرة ما لم تصل إليه مدينة أخرى فهى ((من أشهر مدن الأندلس))[2] قال عنها ابن حوقل التاجر الموصلي: ((وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة وليس لها بالمغرب شبيه فى كثرة الأهل وسعة الرقعة))[3].

لذلك أخذ شعراء الأندلس يتفاخرون بتلك البقعة الكريمة وممن جاء بذكرها والفخر بها أبو محمد بن عطية[4] حيث قال:

بأربعٍ فاقت الأمصارَ قرطبةٌ ... منهنَّ قنطرةُ الوادى وجامعُها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم أكبر شيء وَهو رابعُها[5]

إنها رمز للمكان ببنائها ورمز للتاريخ والحضارة بعلمها وعلمائها

أما ابن العريف النحوي[6] فيذكر أنه دخل على المنصور بن أبى عامر وهو بالعامرية فأنشد أبياتًا مفتخراً بذلك المكان ومادحا الأمير حيث قال:

---

(١) جذوة المقتبس، ٢/ ٦٣٦، وينظر: نفح الطيب، ١/ ٥٨٢.

(٢) نفخ الطيب، ١/ ١٥٣

(٣) معجم البلدان، للإمام شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت الحموى، دار الفكر، مج ٤/ ٣٢٤.

(٤) أبو محمد بن عطية، ينظر ترجمته فى الباب الرابع من: نفح الطيب، مج٤/ ٣٢٤.

(٥) نفح الطيب، ١/ ١٥٣

(٦) ابن العريف النحوي: هو الحسن بن الوليد، يكنى بأبى القاسم، ويعرف بابن العريف النحوى، إمام فى العربية، أستاذ فى الأدب، كان يحضر مجالس المنصور بن أبى عامر. ينظر: جذوة المقتبس، ١/ ٣٠٠، بغية الملتمس، ١/ ٣٢٩.

فالعامـــــــريّة تزهـــــــى على جمـــــيع المبانـــــى
وأنـــــت فـــــيها كـــــسيفٍ قـــد حـــلَّ فـــى غُمـــدانِ[1]

وعلى أثر هذه الأبيات قام صاعد البغدادي[2] وكان مناقضا له فقال أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ومكن سلطانه هذا الشعر الذى قاله قد أعده وروى فيه، أقدر أن أقول أحسن منه ارتجالاً..فقال له قل فقال:

يـــا أيّهـــا الحاجـــبُ المُعـــــ تَلـــــى علـــــى كـــــيوانِ
ومـــــن بـــــه قـــــد تناهـــــى فخـــــارُ كـــــل بَمـــــانِ
العامـــــــريَة أضْـــــــحَتْ كجـــــــنّة الرضـــــــوانِ
فـــــــريدة لفـــــــريدٍ مـــــا بـــــينَ أهـــــل الـــــزمانِ[3]

إن هذه الأبيات تشير وبشكل واضح إلى أن تلك الأماكن قد شغلت شعراء الأندلس فأنشدوا بها وتفاخروا بالقول فيها، ولصاعد اللغوى أبيات أخرى فى الزاهرة فهو يفتخر بها بأنها غزوة بقلوب الشرك فهى نصر عظيم ومكان زاه على مدى الدهر والسنين، حيث يقول:

يـا أيّهـا الملـكُ المنـصورُ مـن يمـنٍ والمُبتَنـى نَـسَبًا غـيرَ الـذى انْتسبا
بغـزوةٍ فـى قلـوبِ الـشِّرك رائعـة بـين المَـنايا تناغـى الـسمرَ والقُـضُبا
أمـا تَـرى العـينَ تجـرى فـوقَ مرمـرِها هـوًى فتجـُرى علـى أحفافهـا الطـربا

---

(١)نفح الطيب، ١/ ٥٨٢-٥٨٣

(٢) هو صاعد بن الحسن بن عيسى البغدادى اللغوى، كنيته أبو العلاء ورد من المشرق إلى الأندلس فى أيام هشام بن الحكم المؤيد وولاية المنصور بن أبى عامر فى حدود الثمانين وثلاثمائة وكان أصله من ديار الموصل، كان عالما باللغة والأدب وحسن الشعر.
ينظر: جذوة المقتبس،١/ ٣٧٣، الذخيرة،ق٤، مج١/ ١٠١

(٣) نفح الطيب، ١/ ٥٨٠-٥٨١.

أجـرَيتها فَطَمـا الزّاهـى بجَـريتَها ... كما طموتَ فسدتَ العُجمَ والعرَبا

تخـالُ فـيه جـنُودَ المـاء رافلـةً ... مُـستَلْئِمَاتٍ تـرُيك الـدرع والَيلـبَا

تحُفّهـا مـن فـنون الأيـكِ زاهـرة ... قـد أورَقَـت فـضّة إذ أورقـت ذهـبا

لا يحسنُ الدهـر أن يُنْشى لهـا مـثلاً ... ولـو تعـنّتَ فـيها نفـسه طَلَـبَا[1]

أماابن شهيد فهو الآخر يفتخر بقرطبة معبرا عن حبه لها فهى على الرغم من كونها عجوزا بالية أضناها الخراب والدمار إلا أنه يرى فيها ما لم ير فى مكان آخر حيث يقول:

عجـوزٌ لعمـرُ الـصِّبا فانِـيةْ ... لهـا فـى الحـشَا سـورةُ الغانـيةْ

زَنَـتْ بالـرِّجالِ علـى سِـنِّها ... فـيا حـبَّذا هـى مـن زانِـيةْ

تُـريك العقُـول علـى ضَـغْفِهَا ... تُـدارُ كمـا دارتِ الـسّانِيةْ

فقـد عنِـيتْ بهـواها الخُلُـو ... مُ فهْـى بـراحتِهَا عاتـيةْ

تقاصـرُ عـن طـولها قُـونكةٌ ... وتـبعدُ عـن غُـنجِها دانـيةْ

تـردَّيتُ مـن حُـزنِ عيـشِى بهـا ... غـرامًا فـيا طُـول أَحـزانِيهْ[2]

لم يكن هذا الفخر بتلك الأماكن شيئًا اعتباطيا وإنما جاء نتيجة العواطف المنفعلة التى ألهبتها مشاعر الحب والفخر لتلك الأماكن لذلك جاءت أبيات شعراء الأندلس بمشاعر دافئة وعواطف صادقة، وظلت تلك الأماكن بصورها ومعالمها أشبه بالينبوع الذى يستمد منه ذلك الفخر، وهيأت جوا شعريا مفعما بالارتياح منح الشعراء القدرة على الإبداع والتصوير بكل ما يحيط به

---

(١) نفح الطيب، ١/ ٥٨٠-٥٨١

(٢) ديوان ابن شهيد ٦٨.